الفصل الثالث

برنسلاو مالينوفسكى
والبحث عن الوظيفية فى جزر التروبرياند

المحتويات :

أولا : برنسلاو مالينوفسكى : أحداث السياق وأفكاره .

ثانيا : برنسلاو مالينوفسكى : بين الامبيريقية والتنظير .

ثالثا : قضايا التصور الوظيفى عند مالينوفسكى .

١ ــ متغيرات التكامل البنائى .

٢ ــ التساند البنائى والاسهام الوظيفى .

٣ ــ النسق بين قضايا التوازن والانحراف والثورة .

رابعا : الكولا : دراسة فى سوسيولوجيا التحليل البنائى .

الفصل الثالث

برنسلاو مالينوفسكى
والبحث عن الوظيفية فى جزر التروبرياند

أولا : برنسلاو مالينوفسكى ، أحداث السياق وأفكاره .

وجهة النظر التى نؤكد عليها أن النموذج النظرى يشكل منطقيا وحدة معرفية فى اطار نسق التفكير العلمى اكثر من كونه نتاجا لموقف ايديولوجى معين أو انعكاسا لواقع اجتماعى محدد على ما تذهب بعض التسجيلات الحديثة للنظرية السوسيولوجية . واستنادا الى ذلك فقد لا نوافق على الموقف الذى اتخذه الفن جولدنر فى تأكيدة أن ازدهار النزعة التطورية فى الانثروبولوجيا يعتبر انعكاسا لازدهار الامبراطورية البريطانية ؛ باعتبار أن هذه النزعة لعبت دور التبرير الأيديولوجى لازدهار هذه الامبراطورية ، ومن ثم يمكن اعتبار ازدهار الوظيفية فيما بعد انعكاسا لانهيار الامبراطورية ، ومحاولتها الحفاظ على المستعمرات (Gouldner. Op. cit. P, 127) أو أن يذهب جولدنر الى القول بأنه باعتبار أن مالينوفسكى كان سليلا ارستقراطيا لأنه حاول الدفاع عن مجتمع التروبرياند كما هو مدعيا أن كل شىء ضرورى لان له وظيفة ، بينما كان فى الحقيقة يدافع عن بعض العادات الارستقراطية أو عن كسل هذه الطبقة كتأكيده (أننا اذا الغينا الرياضة مثلا فسوف ترتفع الجريمة) . وهو مايعنى ان وظيفيته كان هدفها الدفاع عن الأرستقراطية ضد معايير الفائدة والمنفعة التى تشكل أساس الادراك البرجوازى (Ibid, P, 133) ,

وردا على ذلك نعتقد فى صدق ما يذهب اليه دون مارتندال فى قوله أنه حينما ذهب الباحثون الأنثروبولوجيون لدراسة القبائل البدائية لم تكن مؤشرات التغير قد تواجدت بعد فى بنائها ، ومن ثم فحينما أكد مالينوفسكى على النظام والتوازن انما أراد أن يكن موضوعيا وشريفا مع الحقائق (Martindale, Op. cit. P, 455) هذا بالاضافة الى أن القول بالراسب الاستقراطى الكامن وراء

وظيفية مالينوفسكى قول جانبه الصواب لان الاخير كان يعيش فى انجلترا حياة الأقلية بكل ماتعنيه من مشاعر الدونية ، يؤكد ذلك مايذهب اليه جولكمان انه حينما ذهب مالينوفسكى الى مجتمع التروبرياند أستبعد كأجنبى بولندى مشكوك فيه حينماقامت الحرب (Gluckman, 1963. P. 17) هذا الى جانب أن مالينوفسكى حينما تحدث عن التروبرياند لم يتحدث برومانسية أرستقراطية . وانما اكد ان السكون والاستقرار والرومانسية التى عهدناها فى مجتمع التروبرياند قد بدأت تتغير ويحل محلها الجديد ، فمكانة الزعيم قد اهتزت لأنه لم يتسلم الهدايا من اللؤلؤ الذى أقام له الرجل الأبيض مصانعا فى هذه البلاد . (Malinowski, 1934, PP, 468, - 469) .

أما فيما يتعلق بجوار مالينوفسكى مع الاتجاهات النظرية التى عايشها نجد أن اتهاماته تتراوح بكونها قد سبحت على الخطوط الفاصلة بين تيارات فكرية عديدة (Magunder. 1961. PP. 10 - 11) . بعضها يتصل الماركسية) . بينما يتصل البعض الآخر بالاتجاهات الاساسية فى الفكر بالاتجاهات النظرية الرئيسية فى علم الاجتماع (المثالية الوضعية ، النفعية ، الانثروبولوجى وهو ما سوف نعرض له فيما يلى :

وتعتبر الفلسفة البراجماتيه اتجاها فكريا أقام معه مالينوفسكى تفاعلا فكريا عميقا . ويوضح ليش E, Leach هذه العلاقة بتأكيده أن مالينوفسكى قد تأثر بالبراجماتية حينما جاء الى انجلترا فى ١٩١٠ لدراسة علم الاجتماع تحت رعاية وسترمارك وهوبهوس . حيث كانت البراجماتية فى أوج ازدهارها . ومن لحظتها ، بدأت البراجماتية فى تشكيل النموذج الفكرى لمالينوفسكى الذى كان مهيئا لاستيعابها ضمن ما استوعب من أفكار العالم المتحدث بالانجليزية (Leach, 1971, P, 121) ,

ولعل اهم الأفكار التى تأثر بها مالينوفسكى هما فكرتان . الاولى أن أى قضية تكتسب صدقها من خلال سياقها الى تشكل جزءا منه .. فالقضية دائما خطوة وسطى ، أوهى دائما وسيلة الى ما بعدها (ديوى . ١٩٦٠ .

ص ص ١٥ — ١٦). اما الثانية فتتمثل فى أن الكيان المنطقى لايكتمل الا اذا كان وسيلة آدائية تهدى الانسان فى حياته السلوكية والعملية ، اذ لا جدوى فى أن تظل طريقة السلوك المجردة قائمة بغير ان تتمثل فى مواقف سلوكية بعينها (المرجع السابق . ص ٣٢) .

ويؤكد ليش أن وظيفة مالينوفسكى كانت أقرب الى براجماتية وليم جيمس منها الى براجماتية بيرس التى نمثل لها فى علم الاجتماع بوظيفة دوركيم ، وذلك لان وليم جميس كان يفتقد القدرة على التجريد كما هى الحال بالنسبة لمالينوفسكى اذا قورن بدوركيم وموس ورادكليف براون — وتتضح هذه المماثلة القوية بين مالينوفسكى وجيمس فى الصورة التى رسمها جالى W.B. Gallie بقوله (ابتداء من الفكرة المعقولة أن رغباتا بيلوجية معينة ، تكمن وراء الشروط الضرورية لكل تفكيرنا أو تؤدى اليه ، فان (جيمس) يستمر حتى ينطق بالفكرة الأكثر اثارة فى أن الوظيفة الأولى للفكر هى اشباع رغبات معينة فى الكائن العضوى . وأن اصالة وحقيقية هذا التفكير تكمن أساسا فى كونه يشبع هذه الرغبات ، ثم يقول ليشى اننا اذا استبدلنا السلوك والفعل بالتفكير والفكرة فى هذه الفترة ، لوجدنا بسهولة بين ايدينا جوهر الاتجاه الوظيفى لمالينوفسكى (Leach. Op, cit, P, 122) . بل اننا نجد تجليا للمسحة البراجمانية فى تأكيد مالينوفسكى أن المدخل الوظيفى يتطلب منا أن نحدد الدلالة البرجماتية للشىء ، حيث تتحدد هذه الدلالة بل ووجود الشىء نفسه عن طريق معرفة الاثر الذى ينتجه فى الواقع الثقافى Malinowski, 1960 P. 24) . ومن هذا المنطلق نجد أن مالينوفسكى ينقد فريزر وتيلور حول نظريتها فى السحر والدين فى المجتمعات البدائية . اذ يرفض تركيز فريزر لانتباهه أساسا على الشعائر والتلاوات ، مؤكدا أن السحر هو ما يفعله السحر وأن الانجاز الشعائرى لايمكن ادراكة الا فى علاقته بالانجاز المنفعى البرجماتى المتضمن فيه والمرتبط به بصورة جوهرية. أما تحليل تيلور للأنيميزم فيعانى هو الآخر من اعتبارة البدائى فيلسوفا متعقلا،

غافلاً عن أن الدين : ليس الا جهدا ايمانيا منظما من أجل أن يبقى الانسان على اتصال والقوى الغيبية . بذلك نستطيع تسخيرها وترضيتها بالاستجابة لأوامرها (Ibid. PP, 26 - 27) .

بل اننا نجد أن ما لينوفسكى يتضمن نفس الموقف البرجماتى حينما يؤكد على أن وظيفة الوحدة لابد أن تكون ذات طابع عملى . ويعطى مثالا على ذلك باللغة . فالكلمة كوحدة ضمن اللغة تؤدى وظيفة أساسية هى الاتصال واتاحة التفاعل ؛ الا أن الكلمة أو الجملة لها وظيفة عملية أخرى غير الاتصال وهى وظيفتها كأداة لها فعل مباشر كأن تكون جزءا من عملية الانتاج البدائى التى تتم على أساس ايقاعات صوتية تواصلية (احمد الخشاب ١٩٥٩ . ص ٦١). وبذلك تصبح الوظيفة الرئيسية والهامة للغة هى الثانية العملية وليست الاولى .

يبقى بعد ذلك أن نؤكد أنه اذا كانت البراجماتية قد شكلت مصدر الالهام الاساسى لمالينوفسكى من الناحية النظرية . فانها قد الهمته ايضا بالتكنيك المنهجى الملائم . اذ قاده ارتياب وليم جيمس فى امكانية أن يكون لأى معانى مجردة وجود بين الوقائع القابلة للملاحظة الى تأكيدة الدائم على :لملاحظة الميدانية كتكنيك ميدانى مارسه وأوصى به الباحثين ، بل ان هذا الالتصاق بالملاحظة وبالحقائق موضع الملاحظة . وافتقاده القدرة على التجريد أو عدم الرغبه فيه تأثرا بوليم جميس . جعله ينظم افكاره النظرية فى شكل تستحيل معه تماما اجراء المقارنة السوسيولوجية (Leach. Op. cit. P, 122)

واذا كانت الدوركيمية هى الاسهام الوظيفى السابق على مالينوفسكى فانه كان من الطبيعى ان يكون له حواره معها . وكما أوضحنا فان اميل دوركيم كان يرى الضمير الجمعى — المرادف للبناء الاجتماعى — الحقيقة الاجتماعية المفسرة للواقع الاجتماعى بكل تفصيله وذلك لعاملين . الاول . ان هذا الكل يطرح حاجاته ومطالب استمراريته ، وما على الأفراد جزئياته سوى العمل على اشباع هذه المطالب . وثانيا . أن هناك من الظواهر التى

يمكن تفسيرها على المستوى الاجتماعى وليس الفريدى كالانتحار والجريمة والاثومى . ومن ثم اعتبر بناء الجماعة وليس الفرد هو المحك الأخلاقي والموضوعي للحكم على سلامة ومشروعية الآداء الوظيفى .

فى هذا الاطار نجد أن ما لينوفسكى تأثرا بالبراجماتية والنفعية وحتى الوجودية التى رفعت شعار الفردية فى مواجهة النزعة السوسيولوجية ، يرفض التفكير المكبتى لدوركيم الذى تجاوز كل شيء حتى أنه رفض أرجاع السلوك البشرى الى اسس بيلوجية ، وبالغ فى طمس ما هو فردى فأعطى الظواهر الاجتماعية وجودا مستقلا عن الوجود الفردى (Malinowski 1960, P, 19) ثم يتحدث ساخرا انه لم يتمكن بالملاحظة الواقعية أن يرى هذا الضمير الجمعى الذى قال به دوركيم .. وأن محك الصدق لأى نظرية ينبغى أن يكون ما نلاحظه فى الواقع (Ibid, P, 69)

وبهذا الرفض السلبى لاهم افكار اميل دوركيم يؤكو مالينوفسكى فشله فى فهم أعظم الاسهامات التى قدمها دوركيم لنظرية تحليل الانساق الاجتماعية (Parsons. 1970, P, 69) . ويشير أيضا الى انه وان كان باحثا ميدانيا على درجة عالية من الكفاءة ، الا أنه كان يتميز بقدراته المتدنيه على التجريد .

واتساقا مع ما سبق نجد أنه بينما اكد دوركيم أن وظيفة أى حقيقة اجتماعية يجب أن نبحث عنها دائما فى صلتها بغاية اجتماعية ، نجد أن مالينوفسكى يستبدل الغاية البيلوجية بالغاية الاجتماعية . وذلك منادة أو أوقعه فى خطأ منهجى مفاده تحميل بنائه النظرى بأحكام القيمة وليس بالمحكات الموضوعية للحكم كما فعل دوركيم .

بذلك يكمن الخلاف الرئيسى بين مالينوفسكى ودوركيم فى أن الاخير يعتبر الحاجات متعلقة بالمجتمع أو الكل الاجتماعى ، وأن الأفراد فاعلية ذوى وظائف تشبع هذا الكل ضمن مفردات البناء الاجتماعى الاخرى التى عليها عبىء الاشباع الوظيفى ، بينما هى عند الأول وظائف تتعلق بالحاجات البيلوجية للكائن الفرد ، وأن المجتمع والثقافة والنظم ما هى الا وسائل لها آداء وظيفى

تشبع به هذه الحاجات البيلوجية الفردية . وبذلك تصبح العلاقة بين متغير الحاجات والوظائف التابعة أو بين الكيانات التى تنتمى اليها هذه الأداءات متناقضة من حيث اتجاه الحركة الرئيسية بين أميل دوركيم ومالينوفسكى . ويكمن سبب هذا التناقض فى أن نقطة البدء عند دوركيم بل ورادكليف براون هى النزعة البنائية التى بدأت عند منتسكو ، والمتصلة بأفكار التساند والوظيفة والبناء (Buckley 1957. PP. 240 - 241) بينما نقطة الانطلاق بالنسبة لمالينوفسكى تكمن فى الفردية النفعية لسبنسر (Gouldner. Op. cit, P, 128) . والبرجماتيه والنزعة الامبيريقية الانجليزية ، واعتبار ان كل ما هو غير فردى انما هو جهاز لاشباع الحاجات البيلوجية للفرد وأن ما هو ملاحظ فى الواقع يجب أن يشكل اساس معرفة الانسان .

ويحاول مالينوفسكى أن يفسر وظائف مختلف العناصر الاجتماعية من خلال هذا المنظور الفردى ، غير أننا نجده برغم ذلك يتحرك فى مؤلف أخير له (نظرية علمية عن الثقافة) نحو وضع يعطى فيه استقلالا وحتمية للثقافة عن الحاجات البيولوجية للافراد . يتضح ذلك حينما يتحدث عن الثقافة وكونها (فرض لنمط جديد من الحتمية المحددة للسلوك البشرى) (وأن الانسان لايحتاج بسبب الحتمية البيلوجية أن يصطاد بالرمح أو القوس أو السهم ، واستخدام السموم ، أو الدفاع عن نفسه بالمأوى أو الدروع والاسلحة)، ولكن اذا اختيرت أى من هذه الوسائل فلانها ترفع من أمكانية تكيف الانسان والبيئة ، فاذا تم انتقاء اى منها ، فأنها تصبح شرطا ضروريا للبقاء ، ويصبح بعد ذلك أن اى تلف دائم فى هذه الوسائل ، أو فى التضامن الاجتماعى ، أو فى تدريب الفرد على تنمية قدراته يمكن أن يقود ، على المدى الطويل ، ليس الى تحطيم الثقافة فقط ، وانما الى الفناء أو المرض المستمر أو عطب الكفاءة بين البشر ، ومن ثم الى نقص السكان أساسا أو فنائهم Malinowski. 1960) PP, 121 - 122, Parsons. 1970. P, 64) . وبذلك يجعل مالينوفسكى من التكيف والملائمة البشرية وايضا ادائية التقانة ، قنطرة عبور يتحرك فوقها

من الحتمية البيلوجية الى الحتمية الثقافية ، حيث انه اذا تكيف الانسان والثقافة ، فانه لن يستطيع الاشباع لحاجاته البيلوجية . ومن هنا تتحرك الثقافة وادائها من متغير تابع الى متغير مستقل له وجود قبلى سابق وهو موقف يقترب قليلا من الدوركيمية وكثيرا أن ضرورة من يكون مالينفوسكى عالما ذو رؤية ملائمة للأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وليس للبيلوجيا أو الأحياء أو علم النفس .

ولقد كان منطقيا بالاضافة الى ذلك أن يجرى مالينوفسكى حوارا مع كل من التطورية والانتشارية باعتبارهما اتجاهات أساسية فى الفكر الانثروبولوجى فمن ناحية تؤكد التطرية على مسألتين : الاولى . أن هناك مراحل حضارية واحدة لابد وأن تمر بها جميع شعوب العالم (Ibid, P, 10) والثانية أن التتابع الحضارى ينطلق من أصل ثابت ، قد يتعلق هذا الاصل بالجتمع ككل أو باحدى سماته وظواهره . ونتيجة لانتقال المجتمع من مرحلة حضارية الى اخرى تبقى بعض السمات أو المنعزلات المعاصرة للمرحلة الاعلى باقية من المرحلة السابقة وهو ما نطلق عليه لفظ البقايا ، وهى تعنى وجود سمة ثقافية لا تتلاءم ووسطها الثقافى ، فهى مستمرة اكثر من كونها تؤدى وظيفة ، أو أنها تؤدى وظيفة بطريقة لاتبدو متناغمة والثقافة المحيطة . (Ibid, P, 28)

وقد اشتركت الانتشارية مع التطورية فى الاهتمام بالمعطيات الامبيريقية وأن كانت لها أطرها التصورية الملهمة المختلفة ، والتى تتمثل فى المدرسة التحليلية ، والمدرسة الجغرافية الالمانية . ويؤكد مالينوفسكى انه ليس هناك خلاف بين التطورية والانتشارية ، وانما هما اقترابات من الحقيقة لكن من زوايا مختلفة ، يبقى بعد ذلك أن الامتياز الوحيد للانتشارية هو درجة واقعيتها وحسها التاريخى وتسليمها بالمؤثرات البيئية والجغرافية (Ibid, P, 17) .

وبرغم اتفاق الانثروبولوجيا التطورية والانتشارية حول الاصل الواحد للحضارة أو سماتها (Magundar. Op. cit. P, 201) فانهم يختلفون فى انتقال الحضارة كتكوين كلى أو كأجزاء من مكان لأخر

هـذا الى جانب أنـ بينمـا شـكل التاريخ المجال (Op, cit, P, 460) الأساسى لعمل التطورية فقد شكلت الجغرافيا مجال عمل المدرسة الانتشارية. وفى مواجهة ذلك نجد أن مالينوفسكى لايعطى اعتبارا كبيرا لتطورية الحضارة أو انتقال السمة وانتشارها . وانما نجـده يقبـل رؤية الاتجاة الوظيفى وتأكيدة على التصور النسقى للوحدة ، وتحديدة لخصائصها وصفاتها بدلا من تتبع الارتباطات التاريخية لهذه الوحدة مثلما فعـل السابقـون عليـه , (Voget. 1960. P. 950)

ويتلخص خلاف مالينوفسكى مع كل من التطورية والأنتشارية فى اطـار مسألتين : الأولى . انه اذا اغفلت الانتشارية التصور الكلى والتماسك البنائى لسمات الثقافة فان مالينوفسكى يؤكد على تساند وترابط كافة عناصر الثقافة المعاصرة لكونها ذات اسهام وظيفى فى كيان هذه الثقافة . أما الثانية . فتتعلق بموقف الاتجاة التطورى من قضية البقايا ، حيث ينظر الى بعض السـمات الغريبة على الحاضر ، ومحاولة تفسيرها باعتبـارها ذات آداء وظيفى فى ثقـافة سابقـة (Parsons. 1970. P, 55) . على ذلك يرد مالينوفسكى بان اصل الشىء لا يكمن فى بدايته التاريخية ، وانما فى طبيعته الاساسية التى تتضمـن آدائه الوظيفـى (Malinowski, 1960, P, 61) . ثم يؤكد ان القول بوجود بقايا من الماضى فى بناء الحاضر قول غير منطقى . اذ ما جدوى أن يثقل كاهل البناء بهذه الاثقال الميتة ، وأنه من الافضل مناقشة هـذه البقايا فى اطار الثقافة المعاصرة ما دامت هى جزء منه ، لأنها لابد وان تؤدى حتما وظيفة معينة فى هذا البناء (Ibid, PP, 28 - 29) ,

ويشكل التغير الاجتماعى أحد قضايا الحوار بين مالينوفسكى وكلا من التطورية والانتشارية ، وحسبما تذهب لوسى مير أنه بينما تدرس الوظيفية النسق كنهاية لعملية التغير فان كلا من التطورية والانتشارية تعتبران أساسا فروضـا وقضايا عـن التغير الاجتمـاعـى (Lucy Mair, P, 230) . فالتطورية تهتم بالانتقال المرحلى من مرحلة الى اخرى ، وهذا الانتقال بناء على عوامل كثيره ، اما بسبب نضج الوسائل المادية للانسان ، واما ابتداع

انكار الانسان لواقع جديد . اما الانتشارية فقد ركزت علي الجانب المادى للثقافة . وانتقاله من ثقافة الى اخرى.ثم حالةالملائمةكعنصرلابد وان يكون؛الى جوار عناصر ثقافة اخرى . فهو اما أن يعدل من بعض مظاهر العناصر الأخرى . واما أن يعدل من بعض مظاهره . وفى النهاية لابد وأن تسهم هذه التعديلات فى عملية التكيف . وبذلك تعتبر أجزاء اساسية من عملية التغير حتى وان لم تنجزها .

وبالاضافة الى ما سبق ناقش مالينوفسكى بعض أفكار عصره وبخاصة فيما يتعلق بالانسان البدائى . ومن ثم فيمكننا القول بأن مالينوفسكى قد قاد دورا تثويريا فى اطار الفكر الأنثروبولوجى من هذه الناحية . فهو يرفض مثلا فكرة أن التروبرياندى كسول ومضياع للوقت لان الطبيعة كريمة معه ، يؤكد ذلك الرحلات البحرية الطويلة التى ليست لها اية فوائد اقتصادية والتى تقتصر على مجموعة من التبادلات الشعائرية . على ذلك يرد مالبنوفسكى بأن الشخص الكيرواتى ليس كسولا ؛ ولدية طاقة عمل ، ويعمل باستمرار لأن ذلك يؤكد له مكانة اجتماعية . وأن المجتمع التروبرياندى يسوده تقسيم العمل ، يؤكد ذلك نظرة الى صناعة القارب وما يتطلبه من أعمال كثيرة (Malinowski. P. 156). وأن الرحلات البحرية ليست الا انتقالات تجارية ، غير أننا لاينبغى أن نحكم عليها بمعيار المنفعة الساذج والبسيط . فرحلات الكولا تعتمو على اشباع حاجات جمالية وعاطفية لمستوى أعلى من مجرد اشباع الحاجات الحيوانية (Ibid, P, x) .

وفى هذا الصدد يؤكد مالينوفسكى على مبدأ منهجى هام ، وهو يعنى أننا ينبغى اذا درسنا عنصرا معينا أن نتناوله بالنظر الى ثقافته ، وأننا اذا حاولنا اجراء تقييم لحياة الانسان التروبرياندى أو الافريقى باستخدام المعايير أو القواعد الأخلاقية الكائنة فى مجتمعاتنا (فانك لن تجنى اخيرا الا صورة كاريكاتورية اجتهدت أنت فى رسمها (Ibid, P. 35) . ومن ثم فعلى الباحث ضرورة أن يكون موضوعيا ، بمعنى انه فى دراسة وتفسير

واقعه ما ، فان هذا التفسير يجب أن يكون ملتزما بالتأكيد على علاقات الوصل بين الواقعة واطارها البنائى بدلا من فصلها عن اطارها ، حيث يؤدى هذا الفصل الى ضياع معظم معانيها الأساسية .

ويطبق مالينوفسكى ذلك على فكرتين . الأولى تتعلق بما ذهب اليه علم النفس التحليلى بأن بداية الثقافة تتمثل فى الكبت الغريزى ، وأن عقده أوديب أو أية عقده أخرى ما هى الا نتيجة للتكون التدريجى للثقافة (Voget, Op, cit, P, 950)

ثم يذهب بأننا لانشاهد أثرا لهذه العقدة فى مجتمع التروبرياند ، وانما يحل شبح الخال محل الأب ، فالطفل التروبرياندى يشعر بالعداء نحو خالة وليس اباه . وأن ذلك يعزى الى سلطة الخال عليه ، وهى السلطة التى تفرض حتى بعض الضوابط على سلوكة (Gouldner Op. cit, P, 128)

وذلك يعنى اننا لايجب أن نطبق تصوراتنا النابعة من ثقافاتنا على الآخرين من الثقافات الأخرى .

ثم يناقش قضية عقلانية السلوك فى هذا الاطار ، فيؤكد أنه لا يتفق مع موقف الفكر الغربى من قضية عقلانية السلوك البدائى (Parsons, 1970. P, 54) مؤكدا أن البدائى يستخدم عادة المحكات التى وافق عليها جون ستيوارت مل (Leach, Op, cit. P. 128) . فعقلانية السلوك تمكن فى ادائه الوظيفى ومدى اشباعه للحاجات البيلوجية للانسان ، دون اعتبار للطبيعة الكامنة فى هذا السلوك ومدى كونها عقلانية أم لا عقلانية .

الى جانب ذلك نجد أن لمالينوفسكى صلة بأفكار عصره ، فقد أخذ عن فونت نزعته النفسية وامبيريقيته الموضوعية (Ibid, P, 121) وكذا منهجه الاستبطانى النفسى الذى رفضه اميل دوركيم ، ثم انه كان على اتصال ايضا بفردية هربرت سبنسر وتطوريته التى تؤكد ان اى ظاهرة اجتماعية ترد الى اصول فردية لها . ثم هو قد اتصل بالامبيريقية الانجليزية بل وبعض الافكار الماركسية كفكرته عن أن السحر الاسود عبارة عن آداة للضبط الاجتماعى فى متناول اصحاب السلطة والثروة اساسا فى المجتمعات

البدائية وانه ليس متاحا لكافةالناسبنفسالقدر (Gouldner, Op, cit, P, 182)، بل انه قد تأثر ببورك العضوى الانجليزى الذى يؤكد دائما على التقاليد .. اذ يؤكد جولدنر أنه كان لدية احساسا بوركيا بأهمية التقاليد حيث يحذرمن انه اذا ما حطمت التقاليد ، فانك سوف تحرم الكائن العضوى من درعه الواقعى ، وبذلك فانت تسلمه لعملية الموت ، والفناء الحتمية (Ibid. P, 132) .

ثانيا : برنسلاو مالينوفسكى : بين الامبيريقية والتنظير :

قبل ان نعالج المقولات الاساسية لاطار مالينوفسكى التصورى نجد من الضرورى تحديد طبيعة هذا الاطار او النموذج النظرى ، وبذلك تصبح هذه الفقرة فى مكانها شكلا ومضمونا فهى فى مكانها شكلا لانها تقع بعد سردنا لمحاورة المعرفية واستعدادنا لاستكشاف مقولاته التصورية وهى مضمونا لانها استوعبت من محاورة قضايا ، امتزجت فصاغت طبيعة هذا الاطار ، ومقولاته التى ترتبط ارتباطا عضويا بمحاورة .

والحقيقة اننا اذا ما تفحصنا جماع الآراء فى طبيعة تفكيره ونموذجه النظرى لوجدنا ان البعض قد يؤكد انه يؤمن ايمانا عميقا بالدراسات الحقلية وينفر من المناقشات النظرية التى تصطبغ بصبغة فلسفية بحته والتى تظهر على الخصوص فى علم الاجتماع الفرنسى (ايفانز بريتشارد . ١٩٦٠ . ص ٧) بينما يؤكد آخرون انه قد فشل فى صياغة نظرية عامة ، حيث شكلت جانب الضعف فى عمله ، بينما على مستوى النظرية التحليلية او العلمية Clinical، فلقد نجح نجاحا غير مقارن (Parsons. P, 53

ام نقول مع غيرهم انه دائما ما كان يرتاب فى النظرية المجردة (Leach. Op, cit, P, 134)ولو ان قدرته التنظيرية جعلت منه امبيريقيا رائعا بالرغم من فشله فى التنظير المجرد (Ibid, P, 119) وان عدم قدرته على التجريد قد اوقعته فى اخطاء اساسية ما كان له ان يقع فيها كفشله فى التعرف على الوظيفة الاساسية لنظام الكولا (ايفانز بريتشار ، مرجع سابق ، ص ١٤٣) .

وبالنظرة المتعمقة للفقرة السابقة لوجدناها تلخص طبيعته الفكرية فى فكرتين . الاولى انه لم يكن منظرا على قدرة تجريدية عالية بحيث تمكنه قدرته هذه من صياغة تصور نظرى ذا تكامل واتساق منطقى ، والثانية ، غلبة الطبيعة الامبيريقية فى جهده العلمى حتى أثرت هذه الامبيريقية على تنظيره فظل مرتبطا بالوقائع الملاحظة فى ميدان الدراسة ، حتى انه يؤكد دائما ان أية نظرية علمية يجب ان تبدا من الملاحظة وتقود دائما نحوها . وأنها يجب أن تكون استقرائية ، وتتعرض للتجارب العلمية حتى يتم التحقق من صدقها . وان الانثروبولوجيا العلمية يجب ان تشير الى الظواهر التى يمكن تحديد شكلها او هيئتها بالمعنى الموضوعى للكلمة (Malinowski, 1960, P. 67) وبذلك تصبح الملاحظة ، والرؤيا الامبيريقية للحقائق هى المحك الاساسي لصدق التصور النظرى عنده . وهى ايضا المجال الرئيسى الذى يشكل النطاق الوظيفى والادائى لهذا التصور النظرى .

ويبدو ان ذلك ليس غريبا بعد ان عرفنا محاورة المعرفية ، فمن بين محاورة انه تأثر بالنزعة الفردية النفعية كما هى عند النفعيين وهربرت سبنسر ومن هنا كان الفرد وحاجاته العضوية هو المتغاير الاساسى فى الوجود البنائى للمجتمع . وهو ايضا قد تأثر بالنزعة الامبيريقية الانجليزية التى تسند الى الواقع مسئولية خلق التصور النظرى على غرارة ، ويبدو ان نزعته وتصوره للثقافة واجزائها وعلاقتها بالحاجات الفردية ليست شيئا بعيدا عن ذلك ثم البراجماتية وهى مذهب عملى ، يطلب من فكر البشر ان يكون دائما على اتصال بسلوكهم الواقعى يهديه خير الصواب واقصر الطرق نحو الاشباع ثم تأثره بالامبيريقية الموضوعية لفونت واستخدامه المنهجى للاستبطان النفسى ، وبذلك يصبح جماع هذه المحاور هو رفض التصور البنائى المبتعد عن الوجود الفردى الواقعى الملموس كما حدث فى التنظير الفرنسى لعلم الاجتماع على يد اميل دوركيم بصفة خاصة . ثم الاهتمام بالدراسة الامبيريقية للواقع مع ما يتضمنه ذلك من تطوير تكنيكات تساعد على هذا التناول الامبيريقى له . الا انه كعالم وظيفى ــ نشأت وظيفيته فى

جزء منها كجهد نقدى لاصلاح عيوب فى كيانه اطر تصورية سابقة عليه - كالتطورية والنزعة الانتشارية — كان عليه ان تكون النظرة الكلية احد عناصر مدخله التحليلى فى الدراسة وان يكون التكامل البنائى الذى يدرك بقدر من التجريد عقيدة تلون رؤياه فى البحث والدراسة . وهنا كان منشأ التناقض . ذلك لانه مطالب بوجهة نظر لم ترد فى محاورة المعرفية ، أو هى وجدت فى محاور لم يتعرض لها فكرة . (Parsons, 1970, P, 69) وكن لذلك نتيجتين منطقيتين : الاولى أنه ابتكر تصورا بنائيا وظيفيا فيه من العيوب المنطقية وفيه من العيوب المنهجية — اذا ما تفحصناه من وجهة النظر البنائية — أما النتيجة الثانية فلقد اتضحت فى نزعته الامبيريقية القوية التى اكسبت دراستة الامبيريقية فضل الريادة والقدرة على غيرها من الدراسات

وقد كان من الممكن تلافى هذه العيوب المنطقية والمنهجية فى نموذجه النظرى لو أنه قد تعرف على بعض الاعمال الفكرية التى تملك تصورا اجتماعيا بل وتصورا بنائيا للمجتمع كنسق ، فلقد وجد تاعمال ماكس فيبر ، وفلفريدو وباريتو ومع ذلك لم يتعرض لها ولو حتى باشارة — بل أنه حينما حاول التعرف على النزعة السوسيولوجية عند اميل دوركيم تعرف عليها فى نقاط بسيطة للغاية ولم يكتف بذلك وانما وقف من النموذج النظرى الدوركيمى برمته موقفا سلبيا نقديا . (Ibid, P, 69) .

بل ان الفترة الزمنية التى عاشها قد امتلأت على ما يؤكد تالكوت بارسونز بكثير من التحليلات والتصنيفات للانساق الاجتماعية والثقافية والشخصية ، فلقد وجد ذلك التقسيم الذى اتخذ من الانسان محكا له . فهناك من نظروا الى الفرد على أنه كائن عضوى بيولوجى . وهناك من تناولوه على أنه كائن مبتدع وحامل وناقل للثقافة ، ثم تقسيم الثقافة ذاتها الى الثقافة بالمعنى الضيق ، والشق الثانى هو الانساق الاجتماعية التى يمكن تمييزها تحليليا على المستوى النظرى بل ان الفرد ككائن عضوى بيلوجى تناولته التقسيمات فأصبح الكائن العضوى ، ككائن من المنظور الفسيولوجى ثم كنسق شخصية بالنظر الى نوع السلوك المنبثق عن هذا الكئن العضوى . (Ibid, P, 56) .

وبذلك يمكن أن نؤكد انه ظهرت فى هذه الفترة ، مجموعة من الانساق المنبثقة عن وجود الانسان ككائن عضوى فهو كنسق فسيولوجى ، وهو كنسق الشخصية ، أو نسق ينبثق عنه سلوك معين ، ثم الانساق التى تتم عن طريق تفاعل انساق الشخصية ذات السلوك ، اى الأنساق الاجتماعية ثم انساق النمط الثقافى التى تتولد من التفاعل الاجتماعى الواقعى ، والتى تحدا مدى زمان عمر الكائن العضوى والتى تنتقل أو تنتشر من نسق اجتماعى الى آخر (Ibid. P, 57)

وأمام هذه التحليلات للانساق لم يتخذ مالينوفسكى الا التحليل المبدئى الاول ، الذى يصنف الوجود المتعلق بالكائن العضوى الى الكائن العضوى البيلوجى ، ثم الانسان كحامل ومبتدع للثقافة ثم حاول خلق رابطة بين هذين الشقين ، ووقع فى اثناء خلق هذه الرابطة فى قضايا سطحية ساذجة فبينما كان الاحرى به ان يواصل تحليلا أو اختبارا امبيريقيا لانساق وظيفية اساسية هى النسق الاجتماعى ونسق الشخصية تجلى ذلك ، فى تحليلات باريتو وماكس فيبر . ودوركيم بل انه حينما اراد تطوير تحليله هذا طوره على الجانب النفسى لا الجانب الاجتماعى حيث اهتم اساسا بالعمليات والدوافع التى يندفع بها الكائن العضوى للتكيف مع وسطه الثقافى المحيط (Gluckman. Op, cit, P, 235) بل ان هذا الاندفاع الذى يشكل سلوكا لهذا الكائن ، لم يجعل منه سلوكا بين فاعل وفاعلين أخرين على مستوى ساحة التفاعل الاجتماعى بل جعله سلوكا بيولوجيا خالصا بصفة اساسية ثم صاغ له اتصالات بالثقافة وكان ذلك تطورا فى تنظيره .

وقبل ان نحدد مواطن الضعف المنطقية والمنهجية فى تصوره ، نجد انه من الضرورى صياغة القضايا الاساسية لنموذجه النظرى ، تلك القضايا التى تتأرجح بين محورين رئيسيين هما حاجات يجب ان تشبع ثم وسيلة اشباع لهذه الحاجات كما يلى :

(١) ان لدى الكائنات البشرية حاجات نحو الطعام والتناسل والمأوى ... الخ (Martindale, Op, cit, P, 458) وان اى سلوك

فى المجتمع يجب ان يفهم بالنظر الى نوع الاشباع الذى يقدمه لهذه الحاجات البشـــــرية (Parsons, Op, cit, P, 55)

(ب) ان الثقافة هى اساسا جهاز آدائى ، من وظائفه الاســاسية المساهمة فى وضع الانسان فى موقف اكثر تكيفا باتاحة اشباع افضـــل لهذه الحاجات البيولوجية عن طريق حل المشـــاكل التى قـد تعترض انجاز الاشباع او التكيف ، وان ضروب السلوك التى قد يتبعها الكـائن البشرى فى هذه العملية تصبح بالتكرار عادات مكتسـبه لها وجود منفصل ومؤكـد عن الدوافـــع الفسيولوجيـــة (Malinowski. 1960. P, 150)

(جـ) ان الثقافة عبارة عن نسق من الاشياء ، والجهود والاتجاهات التى يؤدى كل جزء فيها غاية معينة وانه يوجد نوع من التساند والتكامل بين هذه العناصر المختلفة بحيث تشكل الثقافة نوعا من الوجود النسقى .

(د) ان الانسان فى هذا الوجود لا يواجه مشاكله وحده ، وانما تقـوم انواعا من الجهود والاتجاهات والاشياء . فتنتظم حول وظائف معينة ، وبذلك تشكل نظما مثل العائلة والبطن ، والمجتمع المحلى والقبيلة ، والجماعات المنتظمة للتعاون الاقتصادى . والجهاز التعليمى ، والسياسى والتشريعى.

(هـ) ان التشريح السابق يصدق على الثقافة اذا ما نظرنا اليها كوجود استاتيكى أما اذا نظرنا اليها فى عملياتها الديناميكية ، فاننا يمكننا ان نحللها الى جوانب اساسية تشكل وجودها كالتعليم ، والضبط الاجتماعى ، والاقتصاد وانساق المعرفة ، والعقيدة الاخلاق ، وايضا انماط التعبير الفنى الخـلاق (Ibid, P, 150)

(و) ثم يضيف دون مارتندال اضافة غير مبررة وهى اللغة كأحد مكونات التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعى ، وكذا ان الاشباع الثقافى يفرض ضرورات ثانوية على الانسان (Mrtindale, Op, cit, P, 458) وعدم التبرير هنا يكمن فى أن اللغة هى احدى وحدات جهاز الثقافة كما ورد فى البند (ب) ، (جـ) ، أما الاشباع الثقافى يندرج تحت علاقة الاشباع التى طرفاها الحاجات البيولوجية وجهاز الثقافة .

اما العيوب المنطقية فى هذا التصور فتكمن أحيانا فى عدم وضوح الرابطة التى تربط بين عناصره بصورة متسقة . فهو ينظر الى الثقافة على أنها نظم مدمجة فى جهاز لاشباع الحاجات البيولوجية . ثم يعطى هذه الثقافة وجودا حتميا بحيث يراها فى شكل انساق اجتماعية وثقافية . ويتركنا مالينوفسكى أمام هـذا الوجود التصورى دون أن يهدينا الى الرابطة أو العلاقة بين هذه الانساق وهذه النظم بصورة واضحة ومحددة .

اما العيب الثانى فهو استخدامه لكلمة وظيفة . فهو لم يستخدمهـا بالمعنى العضوى الدوركيمى أو الذى استخدمها به راد كليف براون . وهو ايضا لم يستخدمها استخدام المناطقة وعلماء الرياضة . وبالرغم من مراوغته وسرده لمعانى عديدة لكلمة وظيفة واستخدامها ، نجد أنه غالبا ما يستخدمها بمعنى الغرض ، فهو يقول ان « وظيفة النظم هى اشباع حاجة معينة (Gluckman, Op, cit, P, 236) وبذلك فهو يترك اثبات هذه الوظيفة للحدد الذاتى الحدسى .

وقد ادى ذلك التصور الوظيفى الى أنه لم يدرك كما يؤكد موس Mauss الوظائف الهامة والبنائية لنظام الكولا (Leach. Op, cit, PP, 132 - 133) .

كذلك نؤكد ان قوله بالوظيفة الشاملة لثقل نسقه بأثقال ميتة هى البقايا ونزع من النسق أية امكانية للتطور ما دام متكاملا ومتسقا فى كافة الظروف ثم نجده حينما يعالج التغير فى المجتمع الافريقى يؤكد تغلب الثقافة الأوربية على الافريقية ، ثم لا يوضح لماذا تخلت الافريقية عن خصائصها لتستبدلها بالاوربية المقابلة . لقد يكون هذا التأكيد على الوظيفة الشاملة انما مرجعه الى التأثر البرجمانى الذى يهدف الى أن كل معرفة ثقافية يجب أن تكون ذات علاقة بسلوك الانسان الواقعى .

ثم ان مالينوفسكى لم يحسم علاقته بالتطورية والانتشارية . مثلما حسمه دوركيم مثلا ، اذ أصر على الدراسة المعاصرة . ثم استبدل التطورية والتاريخية بالمنهج المقارن ، أما مالينوفسكى فبينما هو يصر على أن فهم أى وحدة يجب أن يتم داخل اطارها البنائى ودورها كأداة اشباع لحاجة بيلوجية ، نجده يتطرق الى ذكر أن البقايا لها وظائف ولا يمكن أن تفسر تاريخيا وهو التفسير الذى

رضى به دوركيم ، نجده يؤكد فى دراسته للتغير الاجتماعى انه من الممكن الاستفادة من التاريخ بل ويعيد تركيب الماضى من خلال الاخباريين بما يلقى الضوء على فهم الحاضر (Mair. Op, cit, PP, 240 - 243) . وانه ليس هناك تناقض بين المنظور التاريخى والتصور الوظيفى، وربما يعد هذا التناقض فى تصوره انعكاس للتناقض الذى كان موجودا فى عصره . فهو قد عاش طفولته وسنوات تكوينه الفكرى داخل تلك الافكار الذى قاد ثورة ضدها (Leach, Op, cit, P, 127) ومن ثم كان لابد وان يتأثر ببعض رؤاها .

اما عن مالينوفسكى كباحث ذا قدرة امبيريقية رائعة ، فقضية تعد موضع اتفاق فى الفكر الانثروبولوجى . اذ يؤكد ماكس جولكمان أن البحث الميدانى بكل تكنيكاته وأصالته انما يدين بالكثير لما انجزه له برنسلاو مالينوفسكى (Gluck man, Op, cit, P, 243) ذلك الرجل الذى تفوق على كافة سابقيه، ويعضده قول ليش أن امبيرقية مالينوفسكى القادرة انما تعد العنصر الاقوى والاضعف فى لياقته العقلية ، ولقد كانت احدا دوجما طيقا التعاليم المالينوفسكية أن الحقائق تصبح مفهومة فى اطارها الاجتماعى فقط (Leach, Op, cit, P, 120) , . اما كون أمبيريقيته مكمن الضعف فى بنائه العقلى ، فذلك لانه لم يرتفع بمستوى ملاحظاته حتى تشكل نظرية عامة مجردة ، وان كانت هذه الملاحظات قد وجهت بنظرية مـــا .

وتكمن سر عظمة مالينوفسكى كباحث امبيريقى رائع يتفوق على كثير من الباحثين الميدانيين السابقين عليه ، فى أن أثنوجرافيته على ما يؤكد ليش كانت حية دائما ، وذلك يرجع ليس الى حيلة فنية ، وانما الى قدرة نظرية عميقة (Ibid, P, 119) بل ان مالينوفسكى نفسه يؤكد أن النظرية العلمية يجب أن تبدأ من الملاحظة وتقودها (Malinowski, 1960, 67) وهو بذلك يطلب أن تكون الملاحظة قائمة بناء على نظرية معينة بل انه يطالب الباحثين صراحة فى دراسته عن مجتمع التروبرياند ، ان القائم بالبحث الميدانى يعتمد كلية على الالهام من النظرية، وقد يكون صاحب النظرية هو القائم بالبحث الميدانى . الا انه فى هذه الحالة يقوم بوظيفتان يجب أن يصوغ بينهما فصلا فى الزمان وفى ظروف العمل . , (Malinowski, 1934, P, 9)

فاذا كان هذا موقفه من النظرية وهى الشق الاول من حركة اى باحث علمى فما هو موقفه من الملاحظة ؟ اولا ، هذه الملاحظة تستند بلا شك الى النظرية كما قدمنا وثانيا انه يؤكد اننا نرى الحقائق داخل اطارها الاجتماعى ثم يؤكد أن من احد الشروط الأساسية للعمل الميدانى الجيد انه يجب ان يعالج كافة الجوانب النفسية والثقافية للمجتمع المحلى ، حيث انها متشابكة للغاية ، حتى أن عزل اى جانب منها يؤدى الى عدم فهمه ، حيث لن يتوفر هذا الفهم الا اذا اخذنا فى الاعتبار كافة الوحدات الأخرى ويتجلى ذلك فى دراسته للكولا ، فهو وان كان يعالج نطاقا للتبادل والتجارة الا انه سيشير دائما الى التنظيم الاجتماعى وقوة السحر والى الاساطير والفولكلور ، وفى الحقيقة الى كل الجوانب الاخرى فى علاقتها بالجانب الاساسى (Ibid, P, XVI) . حقيقة ان الباحث سيجمع الحقائق ويلاحظها مشتتة لكيه يجب أن يعيد تركيبها بحيث تبدو حية كما هى فى الواقع . وهنا يكمن دور النظرية ويكمن الفارق بين الملاحظة التى يجريها الباحث المجرد من النظرية وتلك التى يجريها بناء على نظرية معينة .

أما وسائل الملاحظة ، فمنها استخدامه للاخباريين وكما تؤكد لوس مير انه كان يعتمد على ذاكرة الاخباريين لمعرفة الماضى (Mair, Op, cit, P, 242) بما يلقى الضوء على فهم الحاضر . الا أنه لم يكن يعتمد كلية على الاخباريين المحترفين وهذا سر عظمته كامبريقى رائع على ما يؤكد ليش (Lleach, Op, cit, P, 120) بل انه كان يتحدث معهم ليطابق ما رآه فى واقع حياتهم ، وذلك يرجع لانه كان مهيأ لاقامة ملاحظة علمية دقيقة بمعرفة لغة السكان الاصليين مما قلل من اعتماده عليهم . بل مالينوفسكى ينتقد هؤلاء الباحثون الذين يعتمدون على الاخبارين كلية بانهم لن يحصلوا فى النهاية الا على السلوك المثالى وليس السلوك الحقيقى الواقعى ، وهو يحذر كافة الباحثين من تلاميذه من ثرثرة الاخباريين بل يجب على الباحث أن يحافظ على أن يتحدث الاخبارى فى الموضوع دائما . (Gluckman, Op, cit, P, 251)

وتعد الخرائط الجينالوجية الذى قد يقيمها للنسق القرابى فى المجتمع المحلى الوسيلة الثانية . وهو يقول عنها انها ليست الا خريطة يمكن الاحاطة منها بأول نظرة عن علاقات القرابة المترابطة ، وهى تعد مفيدة للباحث لانها

تصور له شكل التماسك الاجتماعى للسكان المحليين ، بل انها تمده ببعض من البيانات الرسمية والحقيقية ، مظهرة فى تجميعها الطبيعى .
. (Malinowski, 1934, PP, 14 - 15)

بل اننا قد نفاجأ حينما نرى أن برنسلا ومالينوفسكى قد حلل مضمون الأساطير والروايات وفقرات الفولكلور فى مجتمع التروبرياند ، واكد أن صورة نظم الكولا وتفاصيله . بل والسحر وكافة طقوسه وعمليات انجاز المبادلات وقادة الرحلات البحرية وسلوكهم فى كل جزيرة موجود فى كل تفاصيله فى هذه الأساطير التى تشكل ميثاقا قيميا لهذا الوجود الواقعى التروبرياندى
(Ibid, PP, 325 - 3281)

وهو يؤكد أن على الباحث ان يضع نفسه فى افضل ظروف العمل ، ولخص له هذه الظروف بأن يكون الباحث على معرفة يقيم ومحكات وأفكار الاثنوجرافيا المعاصرة ، ثم أن يعيش بين السكان الاصليين وليس الى جوار معسكرات البيض وان يعرف لغة السكان الاصليين ثم عليه ان يطبق عددا من الطرق المنهجية فى الحصول على البيانات وليست طريقة واحدة .

ثم يخوض مالينوفسكى معركة ضد الباحثين السطحيين الذين يعتمدون كلية وبصورة كاملة على طريقة السؤال والجواب ، اذ انهم على افضل الاحوال لا يحصلون الا على تقارير ميته وكيان لا حياة فيه من القوانين والاطرادات ، والأخلاق . والمعتادات التى ترسم ما ينبغى أن يكون ولكن الواقع وما يحدث فيه غالبا ما يتسم تجنبه (Leach. Op. cit, P, 135)
اذ انك اذا ما سألت الشخص لن يجب عليك الا بمواثيق حياته تلك التى تشربها فى الصغر وليس بما يمارسه فى حياته الواقعية وما قد يكون بها من انحرافات . ويؤكد أن هناك مجموعة من الظواهر التى لا يمكن تصويرها أو تسجيلها عن طريق وثائق الأسئلة والاحصاءات ولكن يجب أن نلاحظ فى واقعيتها كاملة ذلك لأن هذه الوثائق ليست ملائمة لتصوير تفاصيل هذه الحياة الواقعية
(Malinowski. 1934. P, 18)

ثم بعد ذلك هل نقول مع بارسونز انه فشل فى صياغة نظرية عامة بينما

قد نجح فى صياغة نظرية تحليلية ، أم نقول مع ليش انه أراد أن يصوغ نظرية متوسطة تقف بين الامبيريقية والتنظير ، نظرية تقف بين الثقافة ونظرياتها ذات المستوى المغالى فى التجريد وبين الفرد فى واقعه ودوافعه التى تمثل عمق التواجد الامبيريقى وتجميعها عند موقف وسط ، فانا نؤكد أن هذا الباحث قد صاغ مستوى من التنظير كان افرازا فكريا لجماع ما تلقى من محاورة المعرفية ، صاغ مستوى من الامبيريقية فتح به عصرا جديدا فى البحث الميدانى هذا الى أن مالينوفسكى كان سيء الحظ اذ انه عاش فترة انتقال وتناقض فكرى فانعكس ذلك على موقفه الذى تجلى فى عدم القدرة على التجريد المجرد .

ثالثا : قضايا التصور الوظيفى عند برنسلاو مالينوفسكى :

نعنى بقضايا التصور الوظيفى عند مالينوفسكى تلك القضايا أو الفروض الوظيفية التى وردت فى نموذجه الفكرى بما يجعلها اسهام مالينوفسكى فى بناء النظرية الوظيفية ذات المقولات أو الفروض المحددة ، وقد لا تكون كافة مقولاته وظيفية ثم أنه قد لا ترد كافة القضايا الوظيفية فى فكره ، ومن هنا قصدنا تلك المقولات الوظيفية عنده ، تلك التى تشكل نطاق التقائه والنظرية الوظيفية العامة ، ومن هذه المقولات ، متغيرات التكامل البنائى وهى التصور الكلى للبناء ثم التساند البنائى والاسهام الوظيفى ، ثم التغير والتوازن ، ثم دور الظواهر الانحرافية فى نموذجه الفكرى .

١ — متغيرات التكامل البنائى :

حتما يؤكد أوسيبوف — ناقلا بذلك رؤيا مالينوفسكى — ان اية نظرية علمية عن الثقافة يجب أن ترتكز على دعامتين . الأولى : أن اى ثقافة يجب أن تشبع حاجات الانسان البيلوجية والثانية ، وأن اى انجاز ثقافى يجب أن يكون تحسينا آدائيا لذات الانسان (Osipov, 1969, P, 84) . فانا ننتقده فى أنه قد مسخ النموذج المالينوفسكى الذى وان أكد حقا على الحاجات البيولوجية كمتغير مستقل فى عملية الوجود البنائى والثقافى ، الا أنه لم يغمط الوجود الثقافى كيانه المستقل ، بحيث أصبح هذا الوجود الثقافى ، وجودا بنائيا تصبح فيه الحاجات البيولوجية أقرب ما تكون الى أوضاع المتغيرات التابعة ، فهو لم

يتخذ على الدوام الخط النظرى المؤكد على أولوية الحاجات البيولوجية على مايؤكد بارسونز (Parsons, 1970, P, 54) بحيث لايمثل الوجود الثقافى الا وسائل لاشباع هذه الحاجات ، وهو أيضا لم يكن يسعى كما قد يرى ليش الى اقامة نظرية متوسطة المدى، نظرية تجمع بين قمة التجريد متمثلا ذلك فى الوجود الثقافى ، وقاع الامبيريقية (Leach, Op, cit. P, 136) متمثلا فى حقائق الواقع الملاحظ بل انه على ما يؤكد مالينوفسكى نفسه أعطى الوجود الثقافى الى جانب الوجود البيولوجى وجودا مستقلا يؤثر بنفس القدر والفاعلية فى تشكيل سلوك البشر فى وسطهم المحيط يتجلى ذلك حينما يؤكد أنه بالرغم من أن الكائنات البشرية ليست الا حيوانات الا أنها حيوانا تلا تعيش بالدوافع الفسيولوجية وحدها ولكن هذه الدوافع محكومة ومعدلة بظروف الوجود الثقافى (Malinowski, 1934, P, 42) ثم هو فى موضع آخر يؤكد انه بعد ان أوضحنا خضوع الانسان للحتمية البيولوجية فاننا قد أوضحنا أيضا أنه فى أية عملية حيوية فان الدافع يعاد تشكيله أو تشترك المؤثرات الثقافية فى صياغة الحتمية التى يخضع لها بصورة معينة (Malinowski, 1960, P, 94) مع الحتمية البيولوجية ــ وبذلك يصبح السلوك البشرى فى الاطار المالينوفسكى خاضعا لنوعين من الحتمية ، الاولى الحتمية البيولوجية والثانية الحتمية الثقافية .

فاذا كان الوجود الاجتماعى يخضع للحتميتان ، البيلوجية والثقافية فانا قد نؤكد أن الوجود البنائى يمثل علاقة بين متغيرين ، الى جانب متغيرات اخرى وسيطة . فهناك الحاجات البيولوجية التى تتطلب اشباعا يحققه الوجود الثقافى بسلسلة من الاستجابات وهنا يصبح المتغير المستقل هو الحاجات البيولوجية ، الا أن الوجود الثقافى لا يقف عند حد الاستجابات المباشرة لهذه الحاجات ، وانما بحكم وجوده البنائى يصبح كيانا له دوافعه وحاجاته المشتقة ، ويطرح من المحكات واللزوميات والاتساق الثقافية مما يجعل من المستحيل على الحاجات البيولوجية أن تشبع الا اذا تكيفت مع هذا الوجود الثقافى الذى قد يتغير من مجتمع الى آخر ، وبذلك تتحول الحاجات البيولوجية من موقف المتغير التابع والحقيقة أن هذه الحركة بين الحتميتين

لا تمثل تحركا نحو النضج فى فكر مالينوفسكى بقدر ما تمثل نوعا من تتابع السرد المنطقى للحقائق ».

أما بالنسبة للحتمية البيولوجية فتبدأ من تصوره لتنظيم الشخصية البشرى كنسق من الحوافز . فهو يتصور الشخصية على انها مجموعة من الحاجات الاساسية الموروثة بيولوجيا ؛ حيث حول كل حاجة من هذه الحاجات تتخذ مجموعة من أنماط السلوك الآدائية . الا أن الحافز لهذه الأنماط الآدائية يظل من البداية الى النهاية هو الحاجة الاساسية (Parsons, P, 67) وتصبح الوظيفة الرئيسية التى تبرهن على تواجد هذا السلوك الآدائى أو حتى التواجد المادى لبعض الادوات هى اشباع حاجات الكائن البشرى ؛ وبذلك تتخلق الثقافية التى لن تكون الا جماعا لهذه الادوات والمناشط التى تمارس فى عمليات الاشباع البيولوجى هذه .

ويتجلى ذلك فى أن تعريفة للثقافة كان تعريفا أنسيكلوبيديا صارخا . حيث يؤكد (أنها بوضوح ذلك الكل المتكامل الذى يتكون من الادوات، والسلع المستهلكة ، ومن المواثيق الدستورية الخاصة بعديد من التجمعات الاجتماعية ، ومن الأفكار والصنائع البشرية ، والعادات والمعتقدات ، وسواء كنا نهتم بثقافة غاية فى البدائية والبساطة أو بثقافة متطرفة التعقد والنمو ، فاننا نواجه بجهاز هائل ، مادى فى جانب منه ، وانسانى فى جانب آخر ، وروحى فى ثالث .ذلك الجهاز الذى يصبح الانسان بواسطته قادرا على أن يتوافق والمشاكل العينية المحددة التى قد تواجهه) (Malinowski,1960,P,226) وتبدو المسحة التجميعية فى هذا التعريف نظرا لانه يواجه كل حاجات الانسان المادية والاجتماعية الروحية هذا الى جانب حاجات أخرى مشتقة تتعلق بالثقافة أساسا وليس بالفرد .

ويحدد مالينوفسكى الحاجات البشرية ثم يقابلها باستجابات الثقافة لاشباعها عن طريق مجموعة من الجهود المنظمة ، أما الحاجات البيولوجية الرئيسية فهى :

١ ــ التمثيل أو التحليل الكيفى ــ الكمى .

٢ ــ التناسل أو التكاثر .

٣ ــ الراحات البدنية .

٤ ــ الأمان .

٥ ــ الحركة .

٦ ــ النمو .

٧ ــ الصحة .

ثم يواجهها بالاستجابات الثقافية التى تطرحها الثقافة كنظم من وظائفها الأساسية اشباع هذه الحاجات الرئيسية وهى بنفس الترتيب السابق .

١ ــ ادارة التعيينات .

٢ ــ القرابة .

٣ ــ المأوى

٤ ــ الحماية .

٥ ــ المناشط أو الجهود .

٦ ــ التمرين أو التدريب .

٧ ــ الصحة . (Ibid, P, 91).

ويصبح كل بند من بنود استجابات الثقافة عبارة عن نظام ثقافى وظيفته الرئيسيةهىاشباع الحاجةالمقابلة .ويحذر مالينوفسكىكلالتحذير من محاولة تصوير علاقة النظم التى هى استجابات الثقافة للحاجات البيولوجية كعلاقة مباشرة ، اذ يؤكد أن الحاجة الواحدة ربما يتطلباشباعها آداءا وظيفيا تنجزه مجموعة من النظم المترابطة ، أو أنالنظام الواحد يشبع آداءه الوظيفىحاجات عديدة . وبذلك يقع التشابك والتكثف فى الثقافة ، اذ تكثر وحداتها بحيث تتواجد بها وحدات آدائية اضافية يسهم انتاجها فى توفير اشباع ملائم ومتكامل لمجموعة الحاجات (Ibid, P, 112) . وفى هذا الصدد تبدأ الثقافة فى صياغة ميلاد استقلالها ، ويذكرنا تواجد وحدات الآداء الوظيفى الاضافية هذه بوحدة وظيفية ستظهر فيما بعد عند روبرت . ك . ميرتون ، وهى وجود البدائل الوظيفية ، حيثيؤكد مالينوفسكى أن ثقافات المجتمعات

البدائية تبدو دائما تقاليدية محافظة وذلك لانها لا تطرح بدائل كثيرة للاشباع الوظيفي وهذا على عكس الثقافات المتقدمة (Ibid. P, 123) وبذلك نجد أن مالينوفسكى يختار النظام كوحدة للتحليل البنائى عنده ، اذ يعرفه بأنه مجموعة الجهود التى تمارسها مجموعة من الناس وفقا لميثاق معين يهدف اشباع حاجة بيولوجية .

ثم يبدأ مالينوفسكى فى توضيح بناء النظام . حقيقة أن النظام هو كيان آدائى ذو وظيفة اشباع حاجة أو حاجات بيولوجية معينة ، الا أن هذا الكيان لابد وأن يكون له تجسد مادى ، ثم محكات داخلية للسلوك بحيث تسير وفقا لها هذه الجهود الآدائية الاشباعية ، ثم سلطة معينة تباشر خضوع الجهود أو الاشخاص لهذه المحكات او القواعد ، ثم قبل كل شىء اسلوب يتعلم به أو يتدرب من خلاله الاشخاص على كيفية انجاز مناشطهم بغية هذا الاشباع . ومن هنا نجده يحدد بناء النظام على انه يتكون من وحدات اساسية هى فى ذات الوقت اللزوميات الثقافية Cultural imperatives التى تصبح وظائف انساق رئيسية فى الكيان الثقافى وهى كما يلى :

١ ــ الجهاز الثقافى المكون من المعدات . وسلع المستهلكين التى يجب أن تنتج ، وتستخدم ويحافظ على بقائها ، بل وتستبدل بانتاج جديد .

٢ ــ يجب تقنين السلوك البشرى بالنظر الى تشخيصه الفنى ، أو الاعتيادى أو الشرعى ، أو الاخلاقى ، بل يجب ان ينظم فى الفعل والجزاء .

٣ ــ ان المادة البشرية التى يبقى بها كل نظام يجب أن تجدد وتشكل وتدرب وتمد بالمعلومات الكاملة عن التقاليد والعادات القبلية .

٤ ــ يجب تحديد السلطة فى كل نظام وتجهيزها بالقوى ، بتوفير وسائل القهر لديها حتى تتمكن من تنفيذ أوامرها .

فاذا عرفنا أن هذه استجابات ثقافية للحاجات البيولوجية وأن هذه الاستجابات قد شكلت بدورها من نفسها حتميات أو لزوميات ثقافية كان على

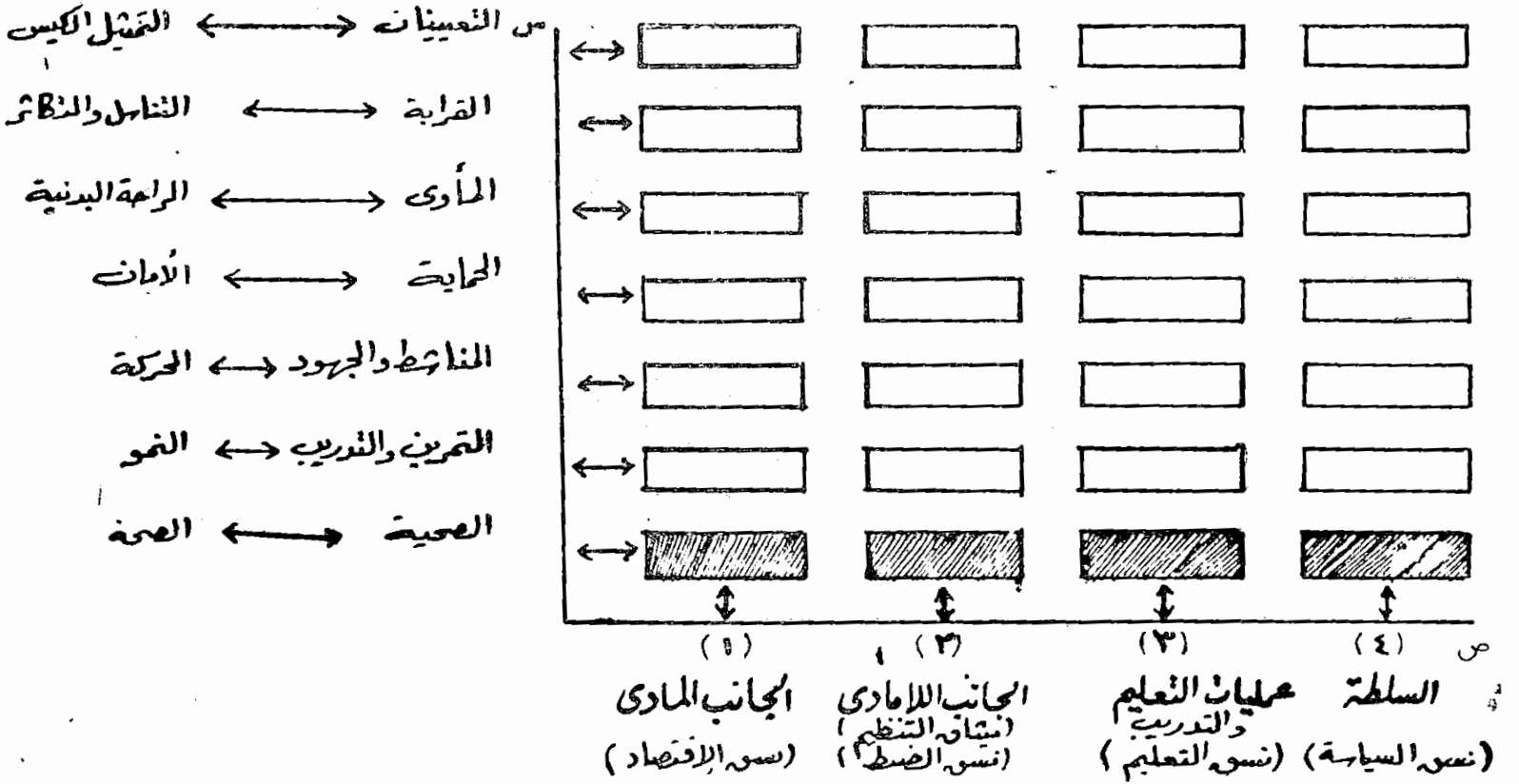

س التعيينات ⟷ التمثيل الكيس
القرابة ⟷ التناسل والتكاثر
المأوى ⟷ الراحة البدنية
الحماية ⟷ الأمان
المناشط والجهود ⟷ الحركة
التمرين والتدريب ⟷ النمو
الصحية ⟷ الصحة
ص
(١) الجانب المادى (نسق الاقتصاد)
(٢) الجانب اللامادى (ميثاق التنظيم) (نسق الضبط)
(٣) عمليات التعليم والتدريب (نسق التعليم)
(٤) السلطة (نسق السياسة)

وفى هذا الشكل نجد ان كل نسق من الانساق يضم مكونة او منطقة من كل نظام تصاعديا على المحور السينى . كذلك نجد أن كل نظام لابد وأن يحتوى فى كيانه على مكونات من كل نسق من الأنساق ؛ يوضحه امتداد النظام على المحور الصادى . وخارج هذا الوجود الثقافى توجد الحاجات البيولوجية للفرد او لمجموع افراد الجماعة ؛ تلك الحاجات التى فجرت نقطة بدء الوجود الثقافى أو البنائى ، لكن بمجرد قيام بناء الثقافة فانها تكسب وجود حتميا وتمارس تأثيرا وتعديلات على الحاجات البيولوجية التى تصبح خاضعة فى اشباعها لمتطلبا ت الثقافة وخصائصها وفى ذلك يؤكد مالينوفسكى ان الثقافة تبدأ فى فرض طراز جديد من اللزوميات او الحتميات المشتقة على السلوك البشرى (Malinowski, 1960, P, 126) اذ يؤكد ان الانسان لايحتاج بالحاجة البيولوجية ان يصطاد بالحراب او بالقوس او بالسهم . او يستخدم السموم ولا أن يدافع عن نفسه بالمأوى أو بالسلاح أو الدروع ، اذن أن اللحظة التى يختار فيها استخدام أى منها، فانها تكون نفس اللحظة التى تتجلى عندها قوة الثقافة فى فرضها لوسائل ثقافية معينة من شأنها أن تزيد من قدرة الفرد على التكيف مع البيئة ، بحيث تصبح هذه الوسائل ذاتها شروطا ضرورية للبقـــــاء يؤكد ذلك أن الاتلاف الدائم للمعدات والتضامن الاجتماعى سوف يقود على المدى الطويل ليس الى انهيار الثقافة فقط، ولكن الى الفناء والوباء المستمر، وافساد كفاءة كفاءة الاشخاص ومن ثم نحو نقص السكان وفنائهم (Parsons, P, 4 and see also Malinowski, 1960, P, 121)

وهو يؤكد أن الاتلاف الدائم للمعدات والتضامن الاجتماعى سوف يقود على المدى الطويل ليس الى انهيار الثقافة فقط ، ولكن الى الفناء والوباء المستمر ، وافساد جديدة مفسرة لذاتها على ما يؤكد دون مارتندال (Malinowski, 1960, P, 122)

وهذا يعنى أن الثقافة على هذا النحو تحقق وجودا أساسيا مستقلا، او حتمية جديدة مفسرة لذاتها على ما يؤكد دون مارتندل (Martindale, Op. cit. P, 457) .

وبتحليل بناء الثقافة فى المجتمع نجد ان مالينوفسكى يقسمه الى شقين الثقافة وعناصرها كوسائل آدائية وظيفتها اشباع الحاجات البيولوجيـــة التى تمثل الشق الثانى ، ذلك الشق الذى يعطى نقطة البدء فى الوجود البنائى

وبتحليله للعلاقة بين الشقين نجده يصوغ حالة من التكامل بينهما بحيث انه من الصعب أن يحيا الكائن الحى (الانسان) بدون اشباع حاجاته البيولوجية وذلك لن يتحقق الا بتوفر وسائل الاشباع الثقافى ، ثم نجده يصوغ تحليلا داخليا آخر يقسم به الثقافة الى حاجات واستجابات . حاجات يطرحها الوجود الثقافى ذاته ليطلب لها اشباعا ، ويحقق بذلك ضمنيا استقلاله وحتميته وقسره على السلوك البشرى ، وحينما يتجه الى اعتبار النظام وحده التحليل والدراسة نجده يتصوره مكونا من أربعة عناصر متباينة ومتكاملة وبذلك يصوغ مالينوفسكى أربعة أنواع من التكامل تكامل الثقافة والحاجات البيولوجية ، ثم تكامل اللزوميات والاستجابات الثقافية ، ثم التكامل النظامى والتكامل النسقى ، وبتحليل كل من اشكال التكامل هذه نجد أن كل طراز منها يدعمه نوع من التساند البنائى الوظيفى بين عناصره ما يؤدى الى صياغة تكامل بنائى شامل له .

٢ ــ التساند البنائى : والاسهام الوظيفى المتبادل :

يحاول الفن جولدنر فى احدث اسهامته تحديد التساند البنائى ، بقوله أن التساند يميل اساسا نحو التأكيد على الكل وعلى الترابط الشديد للأجزاء ، وبقدر ما يميل مفهوم التساند نحو التأكيد على وحدة الكل فانه يميل ايضا للتأكيد على الأجزاء بالنظر الى تضمنها ووجودها داخل هذا الكل الذى يعنى النسق ، وتكتسب هذه الأجزاء حقيقية وواقعية وجودها من كونها توجد داخل نسق ومن اجله (Gouldner, Op. cit, P, 215) ، وتصبح علاقة هذه الأجزاء بالكل فى جزء منها علاقة حجم بنائى اساسا بحيث أن الجزء يكون دائما أصغر من الكل ومحتوى بداخله أما الشق الثانى للرابطة التى تربط الجزء بالكل فهى علاقة الاسهام الوظيفى ، وهى الجانب الدينامى فى هذه الرابطة البنائية ، والحقيقة أن هذا الشق يكتسب معنى خاصا عند برنسلاو مالينوفسكى . اذ يؤكد أننا لايجب أن نصور هذه العلاقة بتعبيرات غير محددة مثل القول بانها الاسهام الذى يؤديه النشاط الجزئى للنشاط الكلى الذى هو جزء منه ناقدا بذلك أميل دوركيم ، ــ حيث ينطبق هذا النقد ايضا من وجهة نظره على راد كليف براون ــ ثم يحاول تحديد هذه العلاقة بقوله انها ذلك الاسهام الذى تؤديه النظم البشرية بما فيها من جهود جزئية لاشباع

الحاجات البيولوجية أو الحاجات الثقافية المشتقة (Malinowski, 1960, P, 159) وهو بهذا يشتق لها تحديدا مأخوذا من طبيعة نموذجه الفكرى كما اتضح من عرضنا لمتغايرات التكامل البنائى .

فاذا ما حللنا متضمنات التساند البنائى والاسهام الوظيفى ، لوجدنا ثلاثة عناصر اساسية . العنصر الأول هو وجود كل بنائى يحتوى على الترتيب الاستاتيكى لعناصر معينة ، ثم التفاعل الدينامى لهذه العناصر ، ولقد اصطلح أن يسمى النسق أو البناء أو حتى النظام . ثم العنصر الثانى وهو الأجزاء سواء فى ترتيبها الاستاتيكى بحيث يتخذ كل منها موقعا استاتيكيا بالنسبة لمواقع العناصر الأخرى . ويختلف الباحثون بشأن مواقع هذه العناصر وترتيبها. فمثلا العلاقة الاستاتيكية لمواقع عناصر النسق فى التصور البارسونزى تختلف عنها فى التصور الماركسى . ثم علاقة استاتيكية أخرى وهى موقع هذا الجزء بالنسبة لكل . وتختلف رؤية هذه المواقع أيضا بين علماء مثل ماركس ودوركيم ومالينوفسكى وبارسونز . أما العنصر الثالث فى مكونات النسق فهو العلاقات الدينامية والوظيفية وهى تحتوى على شقين الشق الأول العلاقة الوظيفية بين الجزء والجزء . ويتعلق الشق الثانى بالعلاقة الوظيفية بين الكل والجزء ويختلف الباحثون ايضا فى صياغة ترتيبات هذه العلاقة الوظيفية بحيث نجدها عند دوركيم تختلف مثلا عنها عند مالينوفسكى .

وبتحليلنا لأفكار مالينوفسكى نجده قد اكد دائما على رؤية أى سمة بنائية داخل اطارها الذى يفسر وجودها ويعطى لهذا الوجود معناه ، ولقد كان ذلك احدى جوانب ثورته الانثروبولوجية ضد تصور النزعة الانتشارية التى تؤمن فى تصورها للثقافة بأنها شتات من السمات المتراصة والتى توجد وجودا عشوائيا تهاجر منه واليه دون أن تكون هناك أية رابطة عضوية بين هذه السمات (Magumdar, Op, cit. P, 32) ومن هنا وجدنا برنسلاو مالينوفسكى يؤكد طيلة كتاباته اقوى ما يؤكد على علاقة الساند والترابط البنائى بين مكونات البناء ، ثم يؤكد انه لا يمكن أن يكون هناك فصل بين الشكل والوظيفة (Malinowski, 1960, P, 152) وان اى شكل يفهم ويكون له معناه من خلال دوره وبذلك فهو ينتقد تحليل فريزر القيم للسحر

بقوله أن انتباهه الرئيسى كان موجها الى الشعائر والترانيم ، ولم يكن على وعى بأن السحر هو ما يفعله السحر ، ومن هنا فاننا لا نتمكن من فهم الانجاز الشعائرى الا فى علاقته بالانجاز النفعى العملى المهيأ له ، والمرتبط به بصورة جوهرية واساسية (Ibid, P, 26) ، وبذلك يؤكد مالينوفسكى ، على الاسهام الوظيفى لوحده بنائية ما من خلال الانجاز المنفعى العملى المهيأ الذى تؤديه ، ثم على التساند البنائى وحينما يؤكد أن هذا الانجاز يتم لصالح وحدة ما ترتبط بها الوحدة المنجزة أو المؤدية للوظيفة بصورة جوهرية واساسية .

وبالنظرة المتعمقة للمشروع المالينوفسكى نجد اننا نواجه بثلاثة انماط من التساند البنائى والاسهام الوظيفى ، اذ يتمثل النمط الأول فى تساند الانساق الثقافية ، أما النمط الثانى فيتمثل فى التساند النظامى ، أما الثالث فيتمثل فى رؤيا هذا التساند على عمليات بنائية كالتغير والتبادل والمقايضة .

ونشتق تساند الانساق من تصورنا للوجود الثقافى كنسق متكامل دون اعتبار الى الحتمية البيولوجية التى شكلت نقطة بدئه. اذ نجد أن مالينوفسكى يقسم الوجود الثقافى الى اربعة انساق اساسية : يعالجها على مستوى التنظير فى كتابه نظرية علمية عن الثقافة ، ثم يعالجها على مستوى البحث والاجراءات الامبيريقية فى دراسته الرائدة أرخبيل غرب المحيط الهادى حيث يفترض أن الثقافة تنقسم الى اربعة انساق رئيسية .

وتتمثل أولى هذه الانساق فى النسق الاقتصادى ويضم — الوجود المادى للثقافة، سواء كان هذا الوجود انتاجيا أو استهلاكيا (Ibid, PP, 120 - 131) أو حتى اعادة لتحديد هذا الوجود فهو الآلات ، أينما كانت سواء كان ذلك قارب الكولا ، أو ثمار اليام المحددة للمكانة الاجتماعية . ثم نسق الضبط الاجتماعى ، ويضم ما قد يسمى ميثاق النظام ، الذى يساعد الجماعة فى تحديد قيم وأعراف ومعايير وأهمية النظام الذى تنتظم فيه الجماعة (Ibid. P, 111) ويضم هذا النسق أيضا تحديدات الجماعة الأخلاقية والشرعية مقننة فى شكل مكافآت وجزاءات ، بل انه احيانا ما يضم النصوص الميثولوجية للاساطير والاوراد السحرية ووظيفة هذا النسق انه يرسم المحكات القيمية والمعيارية

التى يجب أن تلتزم بها عناصر الثقافة فى انجازها لادوارها ووظائفها سواء كانت هذه العناصر هى النظم ام كانت الاشخاص (Ibid, P, 98) ويتمثل النسق الثالث فى نسق التعليم ، وهو يحتوى على التدريب الاجتماعى الذى يكون هدفه مساعدة الفرد على استيعاب القيم المجتمعية المتمثلة فى نسق الضبط . هذا بالاضافة الى تدريب الفرد على استخدام الوسائل المادية من أجل استخدامها فى الانجاز اليومى . ويعد النسق السياسى هو النسق الرابع والأخير اذ يحتوى على كل ما هو سلطة سواء كان ذلك فى العائلة أم فى سلطة الزعيم المحلى ام فى سلطة كبار السن او حتى زعيم المجتمع بكامله . واذا كانت وظيفة نسق التعليم هو استدخال قيم وقواعد المجتمع فى الأفراد ، واشاعة التجديد فى الحياة الاجتماعية عن طريق تدريب كل جيل للجيل التالى له . فان النسق السياسى أو السلطة ، يختص بفرض القواعد واستخدام القوة احيانا (Ibid, P, 99) بل والاختصاص بمسائل الدفاع والهجوم التى قد تكون ذات اهمية بنائية بالنسبة لبناء الجماعة . ويتمثل نطاق الاسهام الوظيفى لاى من هذه الانساق فى الانساق الثلاثة الاخرى ، فمثلا يتدخل السحر فى التروبرياند فى الوجود المادى كصناعة القارب مثلا ثم فى تدشين هذا القارب (Malinowski, 1934, PP, 125 - 146) بل يتدخل انجاز رحلة الكولا . ورسم النطاق الأسطورى أو الميثولوجى (Ibid, P, 336) حيث يستعان به فى التغلب على قوى الطبيعة . اذ هو السلاح الذى يستخدمه التروبرياندى فى التغلب على كافة الاخطار المحيطة به (Ibid, P, XIII) وهناك سحر الحدائق كى تنتج ياما وافرا . وكذا السحر الأسود . بل اننا نجد تأكيدا عند التروبرياندين على ضرورة معرفة اى رجل وخاصة زعيم رحلة الكولا لكافة انواع السحر حتى يتوفر أمان الرحالة له . كذلك قد يتدخل النشاط الاقتصادى فى تحديد السلطة والزعامة . فمثلا الخال يعطى اخته جزءا من محصول اليوم الذى يشكل غذاء لها وزوجها ، وبذلك كلما كثرت زوجات الزعيم ، كلما ورد اليه الكثير من محصول اليام كلما كان اقدر على الانفاق على طقوس والتزامات الزعامة وهو مضمون النظام السياسى .

(Ibid, PP, 464 - 465) وهكذا يعالج مالينوفسكى الاسهام الوظيفى والتساند البنائى انساق الثقافة فى تداخلها من حيث الوجود والآداء بين بعضها البعض.

أما معالجتها على مستوى النظم فيتجلى ذلك فى تأكيد مالينوفسكى أن دور لأى نظام هو اشباع حالة بيولوجية معينة ، فوظيفة الكولا الى جانب التبادل الشعائرى لسلع اجتماعية (العقود وأساور اليد) ـ حيث تهدف بها الى خلق روابط اجتماعية تمكن فى صياغة بناء متكامل من مجموعة فى الجزر المنعزلة (Ibid, PP, 510 - 513) ـ والقيام بعمليات تجارية يساهم فيها القائمون بها على الطعام والسلع الاستهلاكية الاخرى التى لها قيمةعملية (ايفانزبريتشارد .مرجعسابق.ص.١٤٠) ثم الدين حيث نظام وظيفته الرئيسية فى كونه وسيلة يلجأ اليها الانسان لكى يخرج من الازمات حين تفشل كافة الطرق الاخرى (أحمد ابوزيد،١٩٦٥ ،ص٢٢) هذا الى جانب تأكيده على أن كل نظم البناء لها وظائف اجتماعية او ثقافية ابتداء من وظيفة مهر الزواج (Malinowski, 1934, P, 513) وحتى وظيفة الدين واللعب Martindale, Op. cit, P, 459) على نحو ما بين فى كتابه نظرية علمية عن الثقافة الانسان البيولوجية واستجابات الثقافة (Malinowski, 1960, PP, 91 - 119) مع التوضيح على اننا اذا ما حللنا اى نظام نجد أنه يتكون من اربعة عناصر ذات اسهام وترابط بنائى ووظيفى هى العنصر المادى والعنصر اللامادى فى النظام . ثم العنصر القيمى أو عنصر الضبط ثم عنصر التمرين أو التدريب الاجتماعى للأجيال الحالية لكى تستوعب قيم المجتمع ثم السلطة فى النظام حيث وظيفتها الأساسية فرض اتباع الأفراد لقواعد وقيم الميثاق التى قد تم التدريب عليها والتى قد تتعلق باستخدامات آدائية معينة .

أما النمط الثالث فيتجلى فى عمليتى التبادل والمقايضة والتغير،وبالنسبة للتبادل والمقايضة يسرد مالينوفسكى أنواعا كثيرة من المقايضة حتى لكأنه يوحى لنا بأنها تشكل الاساس البنائى لمجتمع جزر التروبرياند ، فهو يعدد أنواعا كثيرة من المقايضات التى اذا ما نظرنا اليها بنائيا لوجدناها اسهامات متبادلة لوحدات بنائية عديدة . فهناك التبادل على أساس استخدام القارب الذى يمتلكه شخص معين والذى يتلقى نظير استخدامه بواسطة الآخرين نصيبا أكبر (Malinowski, 1940, PP, 68 - 74) ثم هناك المقايضة بين قرى الداخل وصيادوا الساحل للسمك بالخضروات التى قد يكون لها استخداما طقوسيا (Ibid, P, 22) . ثم هناك التبادل

الشعائرى المعروف باسم مبادلات الكولا سواء الداخلى منها أو الخارجى ويعطى مالينوفسكى أحد الأمثلة الصارخة على سريان مبدأ المقايضة حينما يؤكد انه حينما تبكى المرأة وتنوح على زوجها بقدر أكبر ، فان هذا له لقاء مقابل يتمثل فى كثرة العطاءات الاقتصادية التى تهب لها من اقارب (Ibid, P, 34) بل أن السلطة السياسية ذاتها تقوم على نوع من الاخذ والعطاء الذى يتمثل فى اسهامات أقارب زوجاته من محصول اليام ، لكى ينفقها فى اغراض اجتماعية صرفه . وبذلك نجد أن مالينوفسكى يركز على هذه العملية كميكانزم أساسى لخلق روابط بنائية واجتماعية قوية .

ثم يؤكد مالينوفسكى فى تعرضه للتغير فى مجتمع التروبرياند ، أن سلطة الزعيم قد أصبحت ضعيفة الآن ، وذلك لأن قدر الهدايا الاقتصادية التى كان يتسلمها فى الماضى قد ضعفت نتيجة لأنه لم يعد له زوجات كثيرات سوى زوجاته الكبار ، وبذلك فهو لن يكون قادرا على العطاء أكثر (Malinowski. 1934 PP, 494 - 465) ويكمن سبب ذلك فى التأثير الذى جلبه الرجل الأبيض معه لصناعات جديدة استوعبت كل نشاط السكان المحليين . بل انه يؤكد . انه نتيجة لتغيرات كثيرة خضع لها مجتمع التروبرياند ، ان أصبحت الكولا الآن عريانة من اية وظيفة اجتماعية هامة ، وهو هنا يعرض للتساند والتأثير الوظيفى الذى بدأ يسهم فى تغيير السمات الأساسية لمجتمع التروبرياند . حيث التغير فى أحد نظم هذا البناء يؤدى الى سلسلة عريضة من التغيرات نتيجة لترابط هذه النظم وتساندها .

يبقى بعد ذلك أن نؤكد أن برنسلاو مالينوفسكى قد عالج التساند البنائى والاسهام الوظيفى كتأثير ايجابى تمارسه الوحدات البنائية على الاخرى بغية مزيد من القدرة على الأداء الوظيفى . ، هذا الى جانب أن هناك نوع من التساند الوظيفى الذى لم يعالجه برنسلاو مالينوفسكى وهو التساند والاسهام السلبى ، أعنى وحدة معينة تسهم فى اعاقة أو القضاء على وحدة أخرى كمثل أثر مجىء الأوربيون على نظام الكولا ، تلك المعالجة التى نجدها بصورة واضحة فى معالجة دوركيم لظواهر الجريمة والانتحار ، والتى ستتجلى فى معالجة ميرتون للوظيفة المعوقة .

النسق : بين قضايا التوازن والانحراف والتغير :

الحقيقة انه بامكاننا أن نؤكد أن قضايا الانحراف والتغير شكلت نطاق التناقض والمعضله فى فكر برنسلاو ما لينوفسكى وذلك لا سباب عديده . أولها ان هذا الباحث كما قلنا كان ضحية تناقض وتولد فكرى شمل فترة ولادته الفكرية . بحيث انعكس هذا التناقض على موقفه ورؤياه فظهر عليهما نفس هذا التناقض . أما السبب الثانى الذى اسهم فى احاطة موقفه من قضايا التغير والانحراف فى النسق بالغموض فهو ذلك الخداع الذى حدث بنشر كابرى لمقالاته غير المنقحة التى سلمتها اياه زوجته بعد موته دون أن تشكل هذه المقالات رؤية مالينوفسكى الاساسية والنهائية للتغير ومن ثم أصبح هذا الكتاب لايعبر الى الكتاب لا يعبر الى حد كبير عن رؤية بنائية وظيفية للتغير . وتعد دراسته الرائدة (أرخبيل غرب المحيط الهادى) الذى اجراها بين التروبرياند هى ثالث اسباب خلق غموض هذا الموقف ، حيث يعتقد انها كانت فى اساسها على ما تؤكد لوس بر هروبا رومانتيكيا الى حيث الهدوء والسكون فى المجتمعات البدائية . يؤكد ذلك قوله (ان الانثروبولوجيا بالنسبة لى هى هروب رومنتيكى من حضارتنا المبالغة فى التقنيين(Mair, Op, cit, P, 229) ومن هنا جاء هذا المؤلف خلوا من أية معطيات امبيريقية . أو حتى مقولات تصورية تؤكد وجود هذه الظواهر الانحرافية اذا نظرنا اليها من خلال التوازن كاستناد مرجعى ، الا اننا اذا اضفنا مؤلفة (الجريمة والعادة فى مجتمع بدائى) الى جانب دراسة عن كولا التروبرياند تصبح بين ايدينا رؤية علمية متكاملة قادرة على تصوير البناء الاجتماعى بما فيه من عمليات وظواهر اساسية . وان كانت بعض الظواهر لم تنل القدر الكافى من التأكد على اسهامها الوظيفى .

وجهدنا فى هذه الفقرة سوف ينصب على معالجة وجهة نظر مالينوفسكى لقضية توازن النسق ثم ما يحطم هذا التوازن ، مركزا على السلوك الانحرافى وما قد يؤدى اليه من عمليات ومواقف صراعية فى النسق تؤدى استمراريتها الى خلق واقع جديد ، متغير عن الواقع السابق على قيامها .

وفيما يتعلق بالتوازن ، فاننا اذا قلنا ان التساند بين عناصر أو أجزاء النسق انما يعنى على المستوى البنائى ترتيبا محددا وثباتا لعناصر النسق ، وعلى المستوى الوظيفى تبادلا للاسهامات الوظيفية بين هذه الاجزاء

أو العناصر ، بحيث ان كل اسهام لاى من العناصر انما يشكل طاقة استمرار للعنصر المتلقى لهذا الاسهام بقدر ما يكون مبررا لوجود العنصر المسهم . فاننا نؤكد أن التوازن هو الثبات النسبى لترتيب العناصر هذا الى جانب الثبات النسبى لقدر الاسهام الوظيفى بين العناصر ، فاذا ما بدأ احد العناصر يطلب اشباعا وظيفيا اكثر واقل . او يعطى اسهاما وظيفيا اكثر او اقل ، فاننا نستطيع ان نؤكد ان التوازن قد اختل ، ويصبح النسق امام استخدام ميكانيزماته الخاصة لتجاوز هذا الاختلال .

ويبدأ ايمان مالينوفسكى بالتوازن من ايمانه باللحظة الافتراضية التى يسميها هو وتلاميذه (نقطة الصفر) Zero Point وهى اللحظة التى يحدث عندها التغير فى الثقافة او فى المجتمع (احمد ابو زيد ، ١٩٦٥ . ص ٢١٨) . وتصبح هذه اللحظة الافتراضية هى لحظة فارقة بين بناءين توجب النظرة الوظيفية — من وجهة نظر مالينوفسكى — الرؤية المتكاملة لكل منهما . ويصبح البناء السابق على هذه اللحظة متميزا بالاستقرار والتوازن . تلك الحالة التى تتطلب لتوفيرها فعل عناصر وميكانيزمات بنائية كثيرة وتتضح رؤيا مالينوفسكى للتوازن فى مجتمع التروبرياند . من تداخل الاسهام الوظيفى بين هذه العناصر بحيث ان كلا منهما يتوقف على الآخرى فانتاج الحدائق من محصول اليام مثلا يؤدى وظيفة فى النظام القرابى ، وكذا فى الكولا ، وفى الاحتفالات الشعائرية ، وفى السلطة ، وفى المبادلات التجارية وهكذا بدوره يكون الاسهام الوظيفى لاى من النظم الباقية بالنسبة لنظم البناء الاخرى ، ويظل هذا الاستقرار فى حجم واسلوب الاسهام ، اعنى — التوازن بين هذه العناصر الى ان يحدث ما يؤدى الى اضطراب التوازن . كما حدث فى مجتمع التروبرياند نتيجة لتدخل عنصر جديد فى النسق أو نتيجة لزيادة احد العناصر فى اسهامه الوظيفى ، مما يؤدى الى خلق آثار بنائية تلغى حالة التوازن السابقة ، اذ تمثل ذلك فى تدخل الاوربيين فى حياة السكان الاصليين ، بخلقهم لصناعات اللؤلؤ التى اصبحت تعطى الشخص ما يحتاجه دون اهمية الاعتماد على الروابط القرابية ، بل ادى ذلك الى الفناء السريع للسكان الاصليين ، ذلك لان هذا التدخل يوقف اسهام بعض العناصر مما يؤدى الى اختلال النسق ، كأن يوقف الاسهام الوظيفى للاقتصاد متمثلا فى محصول اليام ، عبدلا من ان يهدى للزعيم نجده يباع للرجل الابيض ، وبذلك يفقد الزعيم قدرته

المسادية ، ثم السياسة (Malinowski, 1934, PP, 465 - 468) ذلك لانه كان يعتمد فى قدرته المادية على اسهامات أقارب زوجاته ، اما ريادة احد العناصر من كفاءته واسهامه الوظيفى فيتمثل فى دخول اللنشات التجارية (Ibid, PP, 154 - 156) فى حياة التنقل بين جزر الأرخبيل مما أدى الى ابطال مفعول قوارب الكولا نهائيا نظرا لبطئها وبذلك حرمت هؤلاء الناس من متعة الرحلة والتجول والمخاطرة وقللت أيضا من استخدام منشط كالسحر وصناعة القوارب مع ما تحملة من سمات شعائرية وبنائية مرتبطة بالبناء التروبرياندى ، ذلك لان هذه المناشط ترتبط أساسا وحالة بنائية سابقة .

ومن علاقات التوازن ايضا تلك العلاقة البنائية التى تجعل ابن الاخت يرث خاله بينما الابن غريب على ارث أبيه والبطن التى يعيش فيها ، وعادة مايشوب التوتر توازن هذه العلاقة اذ نجد ان العاطفة وعلاقة الدم تربط الاب بابنه مفضلا اياه على ابن أخته بينما قانون التسلسل الاموى يؤكد أن ابن الاخت هو الاحق بكل مايملكه خاله من مال وسلطة . والحقيقة لقد كانت هذه العلاقة محل توتر دائم فى قرى التروبرياند ، حتى ان مالينوفسكى ذاته يؤكد انه ذات مرة حدث خلاف بين ابن الاخت والابن كان من نتيجة طرد الابن من البطن وسبب ذلك حزنا فاجعا لابيه وأمه . الا انه غالبا ما يطرح ميكانيزما لتخفيض التوتر فى النسق كأن يزوج الاب ابنه لابنة أخته ومن ثم يحوله الى صهر له . له حق وراثته من خلال زوجته التى هى بنت اخته ، أو ان يفرض الرجل الابيض فاعلية واحقية رابطة الاب بالابن كما حدث فى بعض قرى التروبرياند حينما كان الصراع يقوم بشأن ذلك
(Malinowski, 1940, Chap, 4)

بل ان هذا التوازن الذى يسود المجتمع البدائى غالبا ما ينتهك بواسطة كثير من الافعال الانحرافية . كالقتل مثلا . تلك الجرمية التى يتغلب عليها المجتمع اما بالدية وهى حيلة بنائية لاعادة التوازن (Ibid, PP, 118 - 119) واما بالقتل والانتقام . بل ان جريمة كفشيان المحارم ، كان يتزوج الرجل بأخته حيث الزواج من الخارج فى هذه المجتمعات . اذ يعد كافة رجال القبيلة اخوة لبناتها ولا يباح الزواج الداخلى حفاظا على طهارة الدم ،

فاذا ما حدثت زيجة من هذا النوع ، فانها تعد انتهاكا للتوازن ويكبر حجم الانتهاك كلما كانت درجة القرابة بين المتزوجين اقرب ، ويقيم المجتمع العقوبات كميكانيزم لاسترجاع توازنه . تلك العقوبات التى تبدأ من السخرية والاحتقار والازدراء كلما كانت العلاقة القرابية بعيدة وغير واضحة ، والتى قد تؤدى الى الطرد بل وتدفع الشخص الى الانتحار احيانا . بل يؤكد مالينوفسكى ان حالات زواج الاخ بأخته نادرة للغاية حيث لم تحدث الا زيجتان اشتهرت بهما قبيلة واحدة هى المالازى (Ibid, Part, 2, Chap, 1) بل وتثير الاحتقار نحوها لهذا السبب .

يتبقى بعد ذلك كثيرا من الافعال التى تعد اجرامية ، كالسرقة ، والسخر الاسود ، وكذا التخلف فى كم او اداء المقايضة او التبادل سواء فى الكولا او المبادلات التجارية العادية ، او حتى انتهاك ملكيات احد الاشخاص ، عادة ما يكون لها رد فعل اجتماعى ، وعادة ما يقوم برد الفعل هذا الشخص الذى وقع عليه الغرم من هذا الفعل الاجرامى . وبذلك يؤكد مالينوفسكى ان القانون المدنى وليس قانون العقوبات على ما يؤكد دوركيم هو الذى يسود المجتمع البدائى ، وانه ليس هناك هذا الولاء والخضوع الكامل للروح الجمعية للجماعة على نحو ما تفعل المدرسة الفرنسية . وانما يماثل موقف الرجل البدائى فى العادة والقانون موقف الشخص الاوربى منهما (Ibid, PP, 3, 4, 30) وان اى فعل بعد انتهاكا لاحد القوانين او العادات بمعنى انتهاك توازنها انما يواجه بميكانزمات الردع واعادة التوازن الى حالته الاصلية . وقد تحوى هذه الميكانيزمات الطرد من المجتمع ، او السجن او السحر او الانتحار . (Ibid, PP, 116 - 118)

ومن الملاحظ أن هناك اتساقا واضحا فى موقف مالينوفسكى من التغير مع موقفه فى علاقة السلوك الانحرافى بالتوازن ، فبينما هو يؤمن بوجود السلوك الانحرافى فى المجتمع البدائى وانه يمثل انتهاكا لتوازن هذا المجتمع ، فانه فى ذات الوقت يؤمن بأن لدى النسق من الوسائل والميكانيزمات ما يعيد به هذا التوازن ويدعمه ، ويصبح طبقا لذلك واتفاقا معه ان التغير لا يمكن حسب التصور المالينوفسكى ان يكون من الداخل — رغم انه قد اكد ان التغير قد يظهر بفعل عوامل تظهر تلقائيا داخل المجتمع (Malinowski, 1947, P. 1)

يؤكد ذلك اننا لا نلمح فى كتاباته اى تأكيد للتغير من الداخل . ذلك التأكيد الذى يعد احدى سمات التصور العضوى للمجتمع الذى يخضع فى تغيره وتطوره لهذا النوع من التطور المستقل . ومن هنا فأن غياب هذا الطراز من التغير عن التصور المالينوفيسكى — مع انه يمثل جوهر التصور الوظيفى عن التغير — من الضرورى أن يطرح تساؤلات عن طبيعة التغير فى النموذج المالينوفسكى ، ثم تساؤلات اخرى تتعلق بأمكانية اتساق هذه الرؤية مع رؤية التصور الوظيفى .

ولمعالجة ذلك نرى ضرورة طرح تعريف مالينوفسكى للتغير حيث يؤكد منذ البداية (انه العملية التى يتحول بها نظام المجتمع القائم أعنى حضارته الاجتماعية والروحية والمادية من نموذج الى اخر (Ibid, P, 1) ومن الرؤية السريعة لهذا التعريف نلمح مسألتين . الأولى أن التغير الثقافى عند مالينونسكى يعنى التغير الاجتماعى أيضا وهذا ما أكدته لوس مير من انه كان يدرس قضايا المجتمع على نفس أسلوب علماء الانثروبولوجيا الفرنسية الذين يركزون على المجتمع ككل وليس على الثقافة فقط على نحو ما كان يفعل علماء الانثروبولوجيا الامريكيون (Mair, Op. cit, P, 232) ويتضح ذلك من تصوره للثقافة على احتوائها كعناصر داخلها لتنظيم المجتمع الاقتصادى وأيضا نسقه المعيارى ، ودستوره السياسى ثم ميكانيزمات ووسائل التعليم، ثم اتساق الدين والمعرفة (Smelser, Op. cit, P, 258) ومن تصوره لعملية التغير الذى يعطية مصطلح الثقافة — وفقا لتصوره نلاحظ انه كان مهتما بالتاكيد على أن التغير يجب أن يتناول كل سمات الثقافة دفعة واحدة .

أما المسألة الثانية فنعالجها انطلاقا من قوله (العملية التى يتحول بها نظام المجتمع ...من نموذج الى آخر)، هنا نجد أن الرؤية للتغير كلية أساسا فهى كلية لانه اذا تغيرت احدى جوانب البناء فانه لابد وأن تتغير كافة الجوانب الأخرى . فاذا ما تغيرت السلطة أو الزعامة فان ذلك سوف يكون له تردد مرئى فى تغيرات تالية فى النظام الاقتصادى بل وفى العلاقات القرابية (Malinowski, 1947, P. 52) ثم يمتد التغير الى الجانب

المعيارى فى النسق يؤكد ذلك التطبيق الامبيريقى لهذه الرؤية حينما يؤكد انه عندما فقدت السلطة التروبرياندية مكانتها فى نظر السكان بفعل التغير الاقتصادى الذى أدخله الرجل الأبيض ، فان ذلك كان له تأثيره على كافة جوانب البناء الاجتماعى مثل علاقاته القرابية ، بل ومبادلاته الطقوسية وولائمه الشعائرية بل والسكولا ذاتها (Malinowski, 1934, P, 465)

ولعل التصور الكلى لعملية التغير عندة ينبثق أساسا من تصوره لحالة التساند البنائى بين عناصر البناء .

وتأتى محتمات التغير عند مالينوفسكى من الخارج أساسا ، اذ يؤكد أن التغير يعنى وطأة أو تأثير ثقافة عليا نشيطة على اخرى بسيطة وسلبية (Smelser Op, cit, P, 258) والحق أن هذه الرؤية بالذات لمحتمات التغير وعوامله هى التى تلغى عن تغيره مسحة أن يكون وظيفيا . فلقد عاصر مالينوفسكى كما قلنا مناخا فكريا رفض منه واتفق مع بعضه . فلقد عاصر التطورية وانتقال المجتمعات من مرحلة الى أخرى بحيث يعد هذا الانتقال شاهدا على وقوع التغير ، وأمام التطورية ركز مالينوفسكى على الدراسة المعاصرة لعملية التغير ، بمعنى تناول الكفاءة الوظيفية المعاصرة لنظم الثقافة ، ومن هنا فهو يرفض أى تتبع تطورى أو تاريخى للنظم لمعرفة تطوره أو تغيره ، وأن كان لم يرفض التاريخ كلية وانما طور له استخداما يلائم تصوره الوظيفى ، بمعنى أن التاريخ مفيد بقدر الضوء الذى يلقيه على فهم فهم الحاضر ، فالماضى له معنى بقدر حياته فى الحاضر ، ومن هنا فهو يؤكد ضرورة تناول بعض وقائع وظواهر الماضى ، التى يكون لها تأثير على تواجد أو تفسير بعض وقائع أو ظواهر الوقائع المعاصرة (Mair, Op, cit, P, 243) أما بالنسبة للانتشارية فهى مع أنها تشبه التصور المالينوفسكى على الدراسة المعاصرة ، الا أنها تعالج التغير عن طريق انتشار أو استعارة بعض السمات من ثقافة الى أخرى ، الا أن مالينوفسكى يرفض أن يكون الانتشار أو الاستعارة متعلقا بسمات الثقافة ، بل يتعلق أساسا بالنظم ذلك لان النظم عنده تعد وحدة للتحليل وهى أيضا وحدة للتغير ، والحق أننا **فى هذا الموضوع نجد تناقضين مع التصور الوظيفى للتغير ، اذ يكمن التناقض الاول فى الايمان بأن التغير نتيجة لانتشار نظم من ثقافة الى اخرى ، ويتضمن**

هذا الايمان الاعتقاد بانفصال نظم الثقافة أو وحدتها وليس ترابطها وتكاملها وهو اعتقاد قد يلائم التصور الانتشارى المؤسس على التصور الميكانيكى للثقافة ، الا أنه لا يلائم التصور العضوى للثقافة ، ذلك التصور الذى يعد أساس التصور الوظيفى . أما التناقض الثانى ، فهو أن مالينوفسكى دائما ماكان يؤكد عدم انفصال الشكل عن الوظيفة ، اذ تتضح أهمية أية آلة من وظيفتها التى تهدف الى الاشباع البيولوجى ، من هنا فأن التغير فى الوظيفة يجب أن يستوجب تغيرا فى الشكل اتساقا مع التصور العضوى سواء كان هذا الغير عن طريق الاستعارة أو من الداخل ، ولقد برد مالينوفسكى أن الحتمية الثقافية قد خلقت تصورا آخر لهذه العلاقة بحيث أصبح شكل الآلة هو أساس وظيفتها ، الا أنه يبقى تناقض أساسى يتمثل فى تأكيد مالينوفسكى الدائم على تكامل الثقافة بأساليبها ووسائلها العقلانية واللاعقلانية ، ثم عدم تفسيره للانهيار السريع للثقافة الافريقية أمام الأوربية ذلك الانهيار الذى يؤكد على خلاف مايرى كفاءة وظيفية أكثر بالنسبة للثقافة الأوربية على الافريقية .

يبقى بعد ذلك أن نوضح ذلك المشروع الذى ابتدعه مالينوفسكى لدراسة التغير . والحق أننا لا يجب أن نظلم مالينوفسكى فى التأكيد على أن ذلك يمثل كلمته النهائية للتغير ، ذلك لأن هذا التصور لا يمكن أن يصدر عن عالم وظيفى له كفاءة مالينوفسكى . ولكننا نستطيع أن نؤكد أن مشروعة لدراسة التغير كان مشروعا تعليميا يود به أن يجيب على تساؤل كيف ندرس التغير الاجتماعى .

ويضم مشروع مالينوفسكى ثلاث عناصر أساسية : واثنتان اضافية وهو يسمى مشروعه (مدخل الخانات الثلاث) . وتفصيله كما يلى :

١ ــ الثقافة المؤثرة أو الطارئة بنظمها ومقاصدها واهتماماتها (وهو يقصد الثقافة الأوربية) .

٢ ــ القدر الموجود من عادات ومعتقدات السكان المحليين بل وتقاليدهم الحية .

٣ ــ عمليات الاتصال والتغير . تلك العمليات التى يتقابل فيهـا أعضاء الثقافتين ، فهم اما أن يتعاونوا ، أو يتصارعوا أو يتراضـوا (Smelser, Op, cit, P, 259)

ثم يضيف عنصرين يجد أن لهما أهمية قصوى هما :

٤ ــ ان المنهج الوظيفى للتغير يجب أن يهتم باعادة تركيب الماضى ، ذلك الماضى الحى فى الاسطورة والذى له اثره فىنظمموجودة .حيثأنالتغير ولو كان قديما فهو لا يمحو الماضى بصورة كاملة وانما يبقى حيا تحت ظواهر السطح . يؤثر فى تفاعل الاتصال الثقافى المعاصر .

٥ ــ رد الفعل الافريقى للتغير . ثم محكات التكيف وعدم التكيف . ومظاهر الرفض . حيث يعتمد ذلك كله ليس على موقف قيمى معيـارى ذاتى . وانما على نظرة أدائية عملية (Malinowski, 1947, PP, 32 - 34)

وبعد أن يصور لنا عناصر مشروعة لتصور التغير فى مجتمع افريقيا نجده يؤكد أن واقع المجتمع الخاضع للتغير أبعد عن أن يكون واقعا متكاملا ومتوازنا ؛ أنه واقع يضم عديدا من العناصر الثقافية المضادة والمتصارعة . وانأىتصور لتكاملالثقافة انما يتجاهل ظواهر كحاجز اللون وكذا الانقسامات الدائمة التى تبقى على شريكى عملية التغير فى حالة عزلة دائمة كل عن الآخر فى المصنع أو الكنيسة أو فى استغلال المناجم ، (وان أفضل تسمية له أنه نموذج يمارس نوعا من التوازن المتوتر . (Smelser, Op, cit, P, 259) ذلك أن شريكى التغير لهما منطلقات مختلفة فى عملية التفاعل المتغير هذه . فبينما أن الافريقى فى مرحلة التغير يجد نفسه انسانا بلا جذور . حيث قـد اختفى استقراره القبلى القديم وكذا وحدته القبلية وتنظيمه الاقتصادى الذى كان يوفر له الامان ، وأن الأوربى قد علمه من صفات المواطنة ما يهيئه كى يكون مجالا لاستغلال للاوربى . ومن هنا فمواطنته ناقصة عنمواطنة رفيقه الاوربى فهو يواجه التميز العنصرى ضده فى كل أمور حياته اليومية والعادية . لذلك فعادة ما يتخذ الافريقى موقفا مترددا من التغير . بل انه يتخـذ موقفا مضادا ؛ بينما نجد أن الاوربى يطرح فى عملية التغير بعضـا من عناصر ثقافته التى اختارها انتقائيا . اذ يجده يقدم تلك العناصر التى تساعد على استغلاله للافريقيين وواقعهم دون أن يعطيهم ميزات الثقافة

الاوربية . ومن هنا ساعد هذا الأسلوب الانتقائى على افساد عملية التغير وسير انجازها (Malinowski, 1947, PP, 58 - 59) وأمام هذا التناقض الذى يجعل من عملية التغير عملية معاناة درامية يخضع لها كل ما هو افريقى ، نجد أن مالينوفسكى يلبس مسوح التبشير والوعظ ، وينادى بما يسمى بالعامل العام الخير . وهو يقصد ان يشترك كل من الاوربى والافريقى فى اتفاق مضمونه ان عملية التغير تهدف لخير كل منهما ، وأن على الاوربيين أن يكونوا خيرين فى مقاصدهم . وانهم يجب أن يعملوا على تحضير الشعوب الافريقية وليس استغلالها . وهنا نجد أنه يبتعد عن أن يكون وظيفيا فى رؤيته . ويتجه نحو رؤية طوبائية يوتوبية يتحدث فيها عن ما ينبغى أن يكون وهى رؤية نراها فى أى تصور وظيفى سابق أو لاحق .

يبقى بعد ذلك أنه بالرغم من رفض مالينوفسكى لتصور واقع التغير كواقع متكامل ، الا أنه يؤكد أنه واقع بلا شك مفسر لذاته ، فهو (واقع ثقافى جديد) يختلف فى مضمونه عن ترابط السمات الموجودة قبلا ، بل وعن مجرد تحول تكيفى معدل لهذه السمات المستعارة (Mair, Op, cit, PP, 233 - 234) انه واقع فيه من الظواهر ما لانشاهده فى أى من الثقافتين ، واقع يمتلك حتمية ثقافية ليست هى بالافريقية أو الاوربية (Malinowski, 1947, PP, 64 - 65) ثم يدلل امبيريقيا على ذلك بقوله أن ظواهر كالتمييز العنصرى ليست أصيلة فى الثقافة الاوربية بالشكل الذى تحدث به فى افريقيا وأيضا أسلوب جذب العمال للعمل ثم أن التخلى عن فائض العمل الافريقى ليس له أصوله فى النموذج الأصلى لأى من شكلى الثقافة (Ibid. P, 23) ومن هنا فالتغير يمثل نموذجا جديدا فى الثقافة ، نموذجا يعتمد الى حد كبير على التأثير الأوربى ، الا أنه دائما مايضم رد فعل القيم القبلية الافريقية القديمة نحو هذا التأثير . فالقانون وعلاقات التعاون والنسق السياسى كلها تمثل وقائع جديدة بأى شكل للثقافات الأم ، وهى لا تفهم بالرجوع المباشر لأى منها . بل يجب أن تدرس كافة عمليات وتفاعلات التغير وفقا لأسس حتميتها الخاصة . (Ibid, P, 80)

وأخيرا ، كما تؤكد لوسى مير انه لو عاش برنسلاو مالينوفسكى قليلا . لنقح تلك المقالات التى نشرها د . كابرى . ولغير فيها كثيرا ، بل أننــــا

نؤكد انه لوقدر له الحياة اكثر لأمدنا بأول جهد وظيفى موجه أساسا نحـــو معالجة قضية التغير ، لكنه بالقدر الذى تركنا عليه ، لم يعالج التغير معالجة وظيفة بنائية ، اذن ماذا تكون معالجته ؟ هل نقـــول أنها تطـــورية او انتشارية ؟ الحق أنها كذلك وليست كذلك . فلقد سار فى بعض الأحيان على نفس خطوط هذه المنظورات النظرية فى معالجتها لقضية التغير . الا أنه كان فى نفس الوقت معارضا لرؤية كل منهما للتغير على نحو ما أوضحنا ، يبقى بعد ذلك أن جهد برنسلاو مالينوفيسكى كان موجها الى المجتمعـــات البدائية الساكنة كما فى التروبريند أو فى مجتمعات أفريقيا ؛ اذ أن دراسته لها كانت تمثل هروبا رومانتيكيا من حضارة الغرب السريعة التغير والكاملة التناقض والصراع ؛ ومن هنا نفهم موقفه وعدم رغبته فى دراسة قضايا التغير فى مجتمع التروبرياند بل وتركيزه على دراسة نظام الكولا وهو تبـــادل شعائرى رومانتيكى شاعرى انقضى وانتهى من ثلاثة أجيـــال على ما يؤكد هو نفسه (Malinowski, 1934, PP, 154 - 156)

رابعا : الكولا دراسة فى سوسيولوجيا التحليل البنائى :

اذا كنا قد برهنا فى دراسة دوركيم انه كان عالمـــا بنائيا وظيفيا عـــلى المستوى التصورى بدرجة أسهمت فى ارساء الأســـاس السوسيـــولوجى للاتجاه الوظيفى فى علم الاجتمـــاع والانثروبولوجيا ، فاننا نؤكد هنـــا ان برنسلاو مالينوفسكى قد اسهم فى ارساء أسس رائعـــة للتحليل الوظيفى ؛ حيث تشكل هذه الاسس مجموعة اجراءات التناول الميدانى والامبيريقـــى لمعطيات الواقع موضع الدراسة ، وللانصاف ، فلقد كانت مهمة مالينوفسكى أكثر صعوبة ومشقة ؛ ذلك لأن التصور المكتبى من البسر على المفكر المتعمق أن يكشف عن الاتساقات والتناقضات بين مقولاته وقضاياه . لكن البحث الميدانى حينما يوجه بنموذج فكرى يعانى فى كشف الوقائع التى تتسق وتصور هذا النموذج ويصبح عليه أن يكون صبورا ، ذا قدرة تصنيفية وتحليلية ، وذا عمق فكرى لفهم وقائع قد يناقض مضمونها ظاهرها ، وهنا تكمن الصعوبة التى تمكن مالينوفسكى من التغلب عليها ، أولا بسبب عبقريته الامبيريقية الفذة وثانيا لأنه مكث أطول مدة مكثها باحث ميدانى فى مجتمع دراســـته بحيث مكنه ذلك من فهم كافة جوانب البناء ما خفى منها وما ظهر .

فلقد انشأ برنسلاو مالينوفسكى بحق أعظم تحليل بنائى وظيفى فى علم الاجتماع ، ولقد يثير دهشتى حينما أطالع عالما متعمقا كبارسونز اذ يؤكد مرة ناقدا مالينوفسكى أنه قد تخلى عن التحليل البنائى للثقافة وللانساق الاجتماعية فى سبيل مستوى معين من الاهتمام النفسى (Parsons, 1970, P, 66) ومرة أخرى يؤكد أن فشله فى تنفيذ تحليلات بنائية قوية للانساق الاجتماعية ، معناه أنه فشل فى خلق هذا النوع من التحليل أو حتى استعارته من الآخرين ، وأنه لو كان قد فعل لاعانة ذلك على فهم وتحديد طبيعة الدوافع الاجتماعية ومولداتها عند الفرد بصورة أكثر قدرة مما فعل أو اعانة على فهم نظرية الشخصية وعلاقتها بالانساق الاجتماعية (Ibid, P, 69) **والرد على ذلك نوضح أن النقد البارسونزى يتخذ من التحليل البنائى البارسونزى للنسق اطارا مرجعيا على أساسه يوجه النقد الى التحليل المالينوفسكى ، وهذا يتعارض وأصول النقد المنهجى الذى يستوجب أساسا كشف التناقض أو القصور المنطقى فى النموذج عن طريق التحقق من الاتساق المنطقى لقضاياه وثانيا بالكشف عن الاسهام الذى أداه هذا النموذج بالنسبة للاتجاه النظرى الذى يعد جزءا منه . وثالثا بتوضيح الصدق أو القصور الامبيريقى لهذا النموذج ، وامكانية أن يكون موجها أو مساعدا لاجزاء الدراسة الميدانية ، أما قياس قدرة أو قصور النوذج وفقا لرؤية ذاتية ، فذلك يبتعد كثيرا عن التقويم العلمى الا اذا اتفقنا على أن العلم هو رؤية الناقد الذاتية وهى هنا رؤية تالكوت بارسونز .**

ولتوضيح قدرة مالينوفسكى على التحليل البنائى الوظيفى نحاول أن نتخذ أحد نظم البناء التروبرياندى الذى كانت موضع دراسته ، ويتمثل ذلك فى نظام الكولا الذى كان مركز التحليل والتركيز عند مالينوفسكى فى دراسته هذه ، فهو كما نعلم قد ذهب الى التروبرياند يدرس الكولا الذى سمع عنها من الرحالة البيض ، ومن قراءته لكتاب الأستاذ سلجمان (Malinowski, 1934, PP, 32 - 33) فلقد ذهب لدراسة هذا المجتمع برؤية علمية تستند الى تصور محدد يركز على تناول المعطيات التناول العلمى . لا يرى فيها غرابة ولا يراها مفتتة منفصلة وانما متكاملة لكل منها دورها ووظيفتها وكما أوضحنا أنه قد اتخذ من النظام وحدة للتحليل البنائى فهو يعرف النظام على أنه (مجموعة من

الناس المتحدين لانجاز نشاط بسيط أو معقد . وهم دائما ما يمتلكون التجهيز المادى والمعرفة الفنية . وغالبا ماينظمون على أساس ميثاق شرعى محدد أو معتاد . مصاغ لغويا فى الاسطورة والبدعة والحكمة وهم مدربون لتنفيذ وظيفة هذا النظام (Malinowski, 1947, PP, 49 - 50) وقبل أن ندخل فى تحليله للنظام نرى ضرورة أن نوضح محاور التحليل الوظيفى عند مالينوفسكى . فالحقيقة أنه استند فى تحليله الى ثلاثة محاور أساسية . المحور الاول : الرؤية المتكاملة والبنائية للنظام بمعنى رؤية النظام كجزء من بناء أكبر أو كأحد عناصر النسق يتبادل مع بقية العناصر الأخرى الاسهام والتأثير . والثانى : رؤيا التكامل الداخلى للنظام بمعنى تناول النظام على أنه الوحدة الأكبر فى التحليل يحتوى على عناصر أخرى ذات اسهام وظيفى فى بنائه . والثالث : الأداء الوظيفى لهذا النظام مع توضيح هذا الاداء على كل من المستوى الفردى والاجتماعى البنائى .

وقبل الشروع فى توضيح وشرح كيفية اجرائه للتحليل الوظيفى على هذه المحاور نود أن نعرض لمدخله فى الدراسة ؛ اذ نجد أنه فى بداية بحثه الرائد ارخبيل غرب المحيط الهادى ، يصف نطاق الدراسة وصفا ايكلوجيا بمعنى مواقع الجزر والسلالات البشرية التى تسكن هذه الجزر . ثم أماكن البحار العميقة التى تصلح للابحار . وكذا طبيعة هذا المكان ثم حلقات الجزر التى تجرى فيها بينها ممارسة الكولا . ثم لبعض الاجراءات المنهجية والميدانية التى اتخذها كى تكون ملاحظة ناجحة . وبعد أن يخلص من الوصف الايكلوجى نجده يدخل فى التحليل البنائى عن طريق تتبع رحلة الكولا ابتداء من التفكير فى الرحلة الى بناء القوارب الى انجازها والعودة محملة بالأساور والعقود . (Malinowski, 1934, P 33)

وفى تحليله لنظام الكولا كجزء من البناء نجده يبدأ بوصف صناعة القارب . فالقارب يصنعه الزعيم وصناعة القارب تحتاج الى تقسيم للعمل يكون الخبير والساحر هما أهم اشخاص هذا التقسيم وهنا يستطرد فى توضيح علاقة السحر بالقارب ؛ فهناك سحر ينجز اذا وقف أحد على كتلة الخشب بعد أن تجوف حتى لا تنكسر وهناك سحر يخفف الوزن اذا كانت ثقيلة ؛ ثم سحر تدشين القارب لكى يكون سريعا ثم سحر حمايته من المخاطر فى رحلة الكولا ثم سحر الحصول

على تبادل موفق في رحلة الكولا ثم سحر لابد أن يعرفه كل مشرك في الكولا خاص بالنظام نفسه ، ثم نجده يتطرق الى ذكر أن هناك سحر أسود وأن هناك خوفا من سحر النساء وكيف يمكن ابطاله . وهكذا نجد أن السحر كنظام اجتماعي له وظائف متعددة ابتداء من الامان الفردي الى الانجاز البنائي يؤدي داخل نظام الكولا (Ibid, P, XII, 261, 336) فاذا ما تمت صناعة القارب وتدشينه ، بل والقيام برحلة الكولا فان هذه الجهود كلها تتطلب تضحية من الزعيم صاحب القارب كأجر للساحر والخبير وكولائم لمن يحضروا احتفالات التدشين او القيام او الرجوع من الكولا ، وهنا نجده يتحدث عن قدرة الزعيم في العطاء وان هذا العطاء لكثرة ماعنده من ثروة ترتكز على عدد زوجاته . ثم ينطلق الى دراسة النظام القرابي فهو أموي في مجتمع التروبرياند ، وأن الاخ يعطي جزءا من زراعته لاخته ومن هنا فكلما تزوج الرجل أكثر زادت ثروته وهذا لايتوفر الا للزعيم . والابن يرث خاله وليس أباه . ثم عن دور الهدايا الذي يعطيها الرجل لزوجته ووظيفتها ثم ينفذ الى زراعة الحدائق وكيف أن التروبرياندي يجهد نفسه لكي يحقق محصولا وافرا يباهي به أمام الناس لانه سيعطي أخته الكثير وأنها لن تعاني من قلة الطعام هذا العام ثم أسلوب الزراعة وكيفية التخزين ، وهنا يوضح ارتباط النظام القرابي والاقتصادي بنظام الكولا (Ibid, PP, 41, 42, 44, 465, 465) ثم ينتقل بعد ذلك الى نظام السلطة مثلا فهو يعرض لكيف تتجمع القرى تحت قيادة زعيم واحد هو نفسه قائد رحلة الكولا وأنهم يبادلون الزعيم بالعقود أو بالاساور وأن هداياهم دائما فاتحة في علاقة الكولا أما هدايا الزعيم فهي خاتمة وذلك في الكولا الداخلية لسمو مركزه الاجتماعي (Ibid, P, 473) وأن قارب الزعيم في الرحلة يكون أسرعها وعلى باقي القوارب أن تسير خلفه . فاذا ما أبطأ قاربه فعليها أن تتأدب وتظل خلفه ويجري هو السحر المتعلق بسرعة القارب فاذا فشل فمعنى ذلك أن زوجته التي تركها في الجزيرة قد خانته مع رجل آخر (Ibid, P, 206) وهكذا الى أن تعود الرحلة بزعامة الزعيم ، معالجا دائما علاقة الكولا بكافة نظم البناء الأخرى ، بحيث اننا نرى هذه النظم من خلال اسهامها البنائي الوظيفي في هذا النظام وتبادل هذا النظام معها هذا الاسهام بصورة تؤكد لنا دائما أن الكولا هو محور كافة هذه النظم في التحليل وليس أهمها ، ويعد هذا المحور الأول الذي سار عليه في تحليله البنائي الوظيفي .

أما التحليل على أساس المحور الثانى فلقد تناول نظام الكولا ذاته بالتحليل من الداخل وهو يعرفه أولا بأنه شكل من المقايضة أو التبادل ذو طبيعة قبلية ممتدة ومنتشرة . وهو ينجز بواسطة مجتمعات تسكن حلقة متسعة من الجزر تكون فيما بينها محيطا مغلقا (Ibid, P, 81) والواقع ان النظام الذى يصوره هذا التعريف ينقسم الى ثلاثة أنواع أو شرائح هى :

١ — المقايضات داخل مجتمع الكولا (Ibid, P, 469) وهو ما يعرف بالكولا الداخلية حيث تحضر الهدايا الى الزعيم كما يحدث فى جزيرة كيروانا وهو الذى يعطيه الناس الهدايا الفاتحة ولكنه لايبدأ العامة بالهدايا أبدا ، وهى تختلف عن الكولا الخارجية هنا فى أنها تدل على التباين فى المراكز الاجتماعية حيث الأقل هو الذى يعطى الأسمى فى المركز أولا ليخطب وده ويبدأ علاقة كولا معه ، وعلى الأخير وهو الاسمى ان يرد على التبادل ويعمده (Ibid, P, 473)

٢ — الكولا بين مجتمعين متجاورين الا أنهما منفصلان . ويستعرضها مالينوفسكى فى الرحلة التى قام بها الزعيم **تولوا** من كيروانا الى كتانا ، وهى كما يراها مالينوفسكى وسيلة اعلامية رائعة اذ أنه بعد أن يرجع الزعيم فانه يحكى للعامة حوله عن حالة حدائق اليام هذا العام فى كتانا ثم يحدثهم عن ترتيبات ورحلات الكولا المستقبلة . وهى لا تستغرق زمنا طويلا فقد يذهب فى المساء ويرجع فى صباح اليوم التالى ولا تحتاج الى سحر الابحار من مخاطر البحر او ما الى ذلك من السحر المتعلق بالكولا الخارجية . (Ibid, P, 472)

٣ — الكولا التى تبحر عبر مسافات بعيدة فى البحر بين مختلف المقاطعات ويعد هذا النوع الثالث اهمها جميعا ويتصوره مالينوفسكى على أن الرحلة تسير على أساس محيط دائرة تسير فيه العقود الطويلة من الصدف الأحمر فى اتجاه عقارب الساعة وتبدأ من الجنوب وتسير الأساور فى الاتجاه المضاد لاتجاه عقارب الساعة . اى تسير السلعتان فى اتجاهين متضادين . وقد تستهلك دورة كل من السلعتين من سنة الى سنتين (Ibid, P, 94) وليس لهذه السلع أية قيمة علمية على الاطلاق وان كانت لها قيمة

شعائرية حيث ترتفع مكانة الفرد وفقا لنوع السلع التى يحصل عليها من هذه المبادلات وبخاصة الأشياء النادرة التى لها قيمة طقوسية عالية ، وهذه التبادلات تتم فى جو يسوده التكلف والرسميات التى لا تنحدر الى مستوى المساواة . وبعد أن ينتهى التبادل الشعائرى يدخل الناس فى عمليات تجارية عادية يساومون فيها على الطعام والسلع الاستهلاكية الأخرى التى لها قيمةعملية (ايفانز بريتشارد.مرجعسابقص ١٤٠) ويختلف الكولا الخارجية عن الداخلية فى ان القائمين بالرحلة لا يأخذون معهم سلع التبادل الشعائرية وانما يذهبون لتلقيها فقط كهدايا وذلك لتساوى المكانات الاجتماعية التى تحتم تساويا وتوازنا فى انجاز الكولا ، حيث يقطع احد الفريقين رحلة الكولا اما الثانى الذى لم يقطع الرحلة فعلية دفع الهدايا (Malonowski, 1934, P, 473)

اما عن التحليل الداخلى للنظام فانه ينقسم الى ثلاثة فئات تحليلية أو هى ثلاثة عناصر . العنصر الأول ميثاق النظام وهى عبارة عن مجموعة القواعد والمبادىء والقيم والمعايير التى يعبر عنها فى الأساطير او الخرافات والحكمة الشعبية التى يجب أن يراعيها الناس فى سلوكهم أثناء انجازهم لنظام الكولا (Ibid, P, 328) ويحتوى ميثاق الكولا أو جانبه المعيارى على اهم المبادىء والتواعد التالية : انه اذا ما اعطيت كولا فلابد أن تردها مهما تأخر الزمن أو تقدم . وان هذا الاستبدال لا تدخله المساومة وقد يتخلل الفترة الزمنية بين انجاز الاستبدال هدايا صغيرة (Ibid, PP, 95 - 96) ان طرفى الكولا يجب أن يكونوا كرماء فى عطاءاتهم حيث يعد ذلك من محددات المكانة فالرجل الكريم تأتيه كولا كثيرة بعكس الشخص البخيل (Ibid. P, 98) ان الناس قد يمنحون صاحب عقد ثمين محاصيل زراعية للتوسل اليه فى اهدائه لهم وهذا يخلق ضمنيا سمعة ومكانة اجتماعية عليا لصاحب العقد (Ibid, P, 99) ان هناك بعض القرى يمارس الكولا فيها الا الزعماء اما العامة يحرم عليهم الاشتراك فيها (Ibid, P, 275) ان المشترك فى الكولا اما ان يكون شماليا أو جنوبيا صاحب عقد أو أساور (Ibid, P, 276) وان الكولا تبدأ من الجنوب وليس من الشمال (Ibid, PP, 325 - 326) وان الشخص المشترك فى الكولا يجب أن يكون قد تخطى مرحلة المراهقة ولايشترك النساء فى الكولا الخارجية وانما قد يتبادلناها مع (Ibid, PP, 278 - 279) ازواجهن . (Ibid, PP, 281 - 283)

أما العنصر الثانى فى النظام فهو الجانب المادى ؛ ويتمثل فى القارب واعداده وكذا فى عقود الكولا ، وكذا فى مواد التبادلات التجارية التى يلفونها فى المعسكر ويأخذونها معهم . ثم سير الرحلة ذاتها والاشخاص المشتركين فيها ، وأسلوب الابحار وتقسيم العمل فوق القارب لقيادته بين الزعيم والبحارة والمساعدين والصبى الصغير ويحكم هذا الجانب بواسطة القيم والقواعد التى وردت فى العنصر الاول وهو الميثاق . ويحتوى هذا الجانب أيضا على الاطعمة والولائم وكافة المعدات المادية .

أما العنصر الثالث فى النظام فهى ميكانيزمات الدعم أو الحفاظ على البقاء ويعد السحر أول الميكانيزمات التى تهدف الى الحفاظ على اتمام الرحلة وانجازها وهناك أنواع كثيرة من السحر فى جميع مراحل انجاز نظام الكولا ابتداء من قطعة الخشب التى سيصنع منها القارب وحتى فى مواجهة المخاطر والحصول على كولا جيدة ، وعلى ذلك فيجب على كل من يقوم برحلة الكولا أن يكون عارفا بالسحر وخاصة الزعيم (Ibid, P, 261) أما الميكانيزم الثانى فهو التدريب والتعليم للصبية او الشباب الذين يشتركون فى الكولا على كيفية أن يكونوا بحارة مهرة ، وكذا أن يعرفوا مسار الكولا وخاصة الكولا البحرية (Ibid, PP, 278 - 280) أما الميكانيزم الثالث فهو السلطة حيث الزعيم هو المسيطر على رحلة الكولا وهو الذى يشرف على جميع مراحل تنفيذ الرحلة ابتداء من صناعة القارب وحتى انجاز التبادل الشعائرى والحقيقة أن هناك تدرجا للسلطة بحيث أن كل قرية لها زعيم وكلهم يتبعون زعيم المقاطعة الذى يكون دائما قائد رحلة الكولا ويكتسب الزعامة فى هذه المجتمعات قدرا كبيرا من الاحترام والتقدير .

والحقيقة أن مالينوفسكى فى عرضه لدراسة الكولا فى مجتمع التروبرياند لم يتبع هذا التصنيف الذى عرضناه ولكنه كان فى هذه الدراسة باحثا اتنوجرافيا يركب المادة المبعثرة حتى تبدو متكاملة وفقا للمنظور النظرى الذى عرض له بصورة واضحة ومحددة فى كتابة نظرية علمية عن الثقافة .

أما المحور الثالث الذى حلل مالينوفسكى على أساسه النظام فهو مستوى الاداء الوظيفى والحق اننا فى هذه الفقرة نرد على النقد الذى وجه

ليش بقوله ان مالينوفسكى لم ير فى الكولا الا نظاما اقتصاديا وهى من الناحية العملية لانفع لها وان رؤية الاستاذ موس للكولا تركز على أنها شعائر رمزية تشير الى علاقات الود والصداقة التى تدخل كمكون أساسى فى البناء الاجتماعى (Leach, Op. cit, P, 133) وبأن برنسلاو ومالينوفسكى قدعرفكافة الوظائف المتعلقة بهذا النظام ابتداء من تلك الوظائف المنطلقة من الحتمية البيولوجية الى تلك المنطلقة من الحتمية الثقافية فله وظائف اقتصادية حيث يكون هناك الحديثعنالجزرالتىارتفعتمحاصيلهاهذاالعام (Malinowski, 1934, P, 374) كذا فان الكولا يخلق نوعا من التماسك الاجتماعى بين أفراد مبعثرين عن طريق خلق تجانس اجتماعى وقيممشتركة بين عديدمنالجزروالمناطق (Ibid, P, 510) كذا فان ملكية سلع الكولا تؤمن الخوف من الارواح الشريرة ، وكذا خلق تبـــادلات تجـــارية كثيرة فى البنـــاء (Ibid, P, 513) وهذا الى جانب ان الكولا لاتدخل فى تحديد المكانة الاجتماعية والترتيب الاجتماعى للأشخاص داخل البناء سواء من حيث انجازهم لوظائفه او سواء من حيث اسهامهم فيـــه .